أمواج الليالي

إدوار الخرّاط



أمواج الليـالي

إدوار الخرّاط

أمواج الليالي

متتالية قصصية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى ١٩٩١
دار شرقيات للنشر والتوزيع
الطبعة الثانية ١٩٩٢
دار الآداب

هل أبحث عن النور
في حضن جماعة الأخيلة؟
وموجها المظلم المرتطم؟
أم انكسر السفين؟

إدوار الخرّاط

(أ) سحب ملتبسة

«ولقد آن أن أصحو
فما لي طال سكري
البهاء زهير

دقدقة قطرات المطر متواترة فـوق سقف التاكسي، وهـو يمرق ببطء وحرص في الشارع الصامت الفسيح بين الشلّالات والجبّانات.

تماثيل الملائكة القديمة البيضاء تعود فتـطّل عليّ من غسق الغـروب المحمرّ الذي ينطفيء سريعاً، كأنّها تشير إليّ برسالة لا أفكّ شفرتها.

الهـواء في داخـل التـاكسي دافيء وكـأنّـه مبلول، النـوافـذ مقفلة بـإحكام، وخيـوط الماء تنثـال على زجـاجها نـاعمة ومتعـرّجة. هـذا الـدفء يأتي إليّ من جلد المقـاعد، ومن فخـذهـا الملتصقـة بسـاقي، ويدها الممسكـة بيدي، كـأنّها تطلب نجـدة، ساكنـة فوق حجـري، قريبة جدّاً من نبضي المنتظم الحارّ في توتّري المشدود.

أنزل السوّاق نافذته الأماميّة قليلاً، فنفذت إليّ رائحة التراب تحت المطر، بدائيّة فيها عصير مكتوم من العشب والنباتات الحـوشيّة وفـوح الخصوبة والتحلّل معاً.

كان البحر قريباً، بل كان معنا، حضوره ووشيش موجه المتـلاحق يغمرنا.

والسماء، حتّى الأفق، تهجم علينا مثقلة بسحب ملتبسة.

ألن تنجاب السحب أبداً؟

المطر الخفيف المتساقط على الشارع، وسط الأحجار المتواشجة الداكنة، ونخلة وحيدة فجائيّة، رشيقة، تبسط سعفها جدائل مروحة هائلة وجامدة، مستندة إلى الحائط الرخاميّ المصمت العريض لا نافذة ولا شقّ فيه، وكأنّما تنشقّ عنها ربوة عالية تفترشها أحراش متشابكة من أوراق التين الشوكي الدسمة العريضة.

السلّم الرخاميّ يلمع نديّاً إذ يصعد إلى المبنى السامق بأعمدته الجرانيت الأسطوانيّة كاملة الاستدارة تكاد تختفي من وراء دغلات الشجر استوائيّة الشكل.

طرف فستانها ارتفع قليلاً فوق ركبتيها المفتوحتيْن وبانت سمرة اللّحم المتماسك النضر، كأنّ فيه صفرة ذهبيّة حية ورقراقة تحت ضوء هذا الغروب الساقط بين البحر والشجر والمدافن. سَحْبة الفخذيْن إلى الركبتيْن رقيقة ومنسابة.

كانت عيناها تغلبانني، فلا أستطيع أن أنظر إليها، بل تملكني عناصرها الأوليّة: الماء المضطرب والجسد الساجي والخضرة الضاربة.

مازال قلبي طيّاشاً لا يؤوب إلى استنامة.

هل كنت قد سكرت من فيضان السحب وخمر فخذيها؟

آن لي أن أصحو.

استدار التاكسي، ووراء شفافيّة المطر الرفيق رأت اهتزاز قلعة قايتباي، في رقصة غير مألوفة، دون صوت.

قلت: كم هي صغيرة حقًّاً، وجميلة إلى حدٍّ الإيلام.

صارمة وقاسية في حبِّها، جارحة، حادّ قاطع وحلو وكهربيّ.

قلت: كم هناك من جميلات ونضرات. ليس هذا يعني شيئاً.

هل حبّي يسع كل الجمال في كلّ العالم؟
فقط في حلم غير مستبين.
أهذا ما قُدّر لك أن تنال؟

ضحكت في سرّي وأنا أشدّد قبضتي علي يدها، وأشدُّها على مهل حتى تكاد تلامس انتصابي المستتر المعلَن معاً.

قلت لنفسي: لا بأس. فاتتني في الطفولة والصبا متع الطفولة والصبا. هل أنا الآن تغرقني سعادات الشباب؟

ألن تهدأ أبداً نافرةُ القلب وتقع طائرةُ الأهواء؟
الحبّ الأمين.

قلت: الآن وقد بدأت أعمدة النَبْت الحوشيّ تميل وتحني رأسها وتهتزّ سيقانها أفتقد ضحكة الحبّ الأمين النقيّ بلا تعقيد افتقاداً يشبه جوعاً كأنَّه لن يشبع أبداً.

ليس في الأفق غير السحب المحمَّلة وعواصف غير محسوسة، لا تنفجر، بل تملأ أوَّل هذا المساء الماطر الدافئ بقلق لا يريم.

قلت: يا شيخ، بطِّل هذه الرومانسيّة الصفيح! تعقيدٌ حيث لا عُقَد، وحنين عقيم. أنت في عزّ العمر وتقول وتعيد مراثي إرميا؟

ليس هجومي عليها، وعدواني، في علاقة الحبّ هذه المريبة

المحوطة بالشكّ إلّا دفاعاً عن نفسي، وخوفاً من الحبّ. ليست هذه مرثيّة.

لم تكن دموعهاالتي تتقطّر لي، دموعَ إحباطٍ أمام الحبّ.

بل كانت دموعَ حزنٍ على حبيب غير موجود.

كنّا الآن عندها في شقّة الأنفوشي.

كانت تحكي:

ـ طرق الباب، في ليلة. وبِعيد عنّك، كان واقفاً وقفة عسكريّة، زِنْهار، وحيّى تحيّة عسكريّة، صاغْ وعلى كتفه النسر الفخور، وكان وحده، استغربْت. قال لي إنّه مندوب القيادة. عرفت بعد ذلك أنّ العسكري المراسلة الذين نشروا في الصحف والراديو أنهم ألغوه، كان تحتْ، على دكّة البوّاب في مدخل البيت. فتّش الشقّة بدون مبالاة، وحده، فخوراً بنفسه، فتح الأدراج، وبصّ في الدولاب ـ توقّف لحظة عند الكيلوتات والسوتيانات ـ كأنّه يؤدّي مهمّة، دون اقتناع. دَعَوْتُه إلى فنجان قهوة، وقبِل، وعاد مرّة، ومرّة، وكثيراً. قال إنّه الحبّ من أوّل نظرة ـ كما قال ـ ولم تكن هناك مشكلة أن ننتهي في السرير. الكوميديّ قليلاً ـ الكوميديّ جدّاً ـ إنّه كان بعد أن يخلع ملابسه يعود فيلبس الجاكتة الكاكي، بالنسر اللّامع، والكاب، فقط، حتّى ونحن في السرير.

قالت:

ـ انقطعتُ عن رؤية الزملاء مؤقّتاً، تعرف، وعن كلّ نشاط، ولبدت في الذرة، كما يقال، بتربُّص وتدبُّر. كانوا قد قتلوا خميس

والبقري من أسابيع وكانوا يفاوضون دالاس على توريد الأسلحة وفلوس السدّ.

وقالت:

ـ لم يكن قد أكمل صنع الحبّ. لم يكمل صنع الحبّ أبداً، يعني.. تعرف.. لم يصل إلى الغاية.. لم يتمّه.. نهايته..

القطرات المدوّرة تسقط واحدة إثر واحدة، منفصلة إحداها عن الأخرى، كاملة الصفاء.

قالت:

ـ كنت قد رقدت على بطني، وجهي على رجليه، وكان صامتاً، أحسّه لا ينظر إليّ حتّى. وكانت النافذة مفتوحة كما لو كنّا في العراء، البحر بعيد وغامض، وقوارب الصيّادين وشباكهم كأنّني أراها في العتمة معمورة بالناس البريّين وسكّان البحر، ورائحة تأتي إلينا من حلقة السمك القديمة في الأنفوشي فيها زفارة.

قالت بحنين، وتفجّع قليل:

ـ ومع ذلك كان طيّب النيّة. كان يريد لي الخير أساساً، وإن هَزَمَتْه إرادتهُ نفسها. كانت حمايته لي من غوائل كثيرة، غوائل في دخيلتي، ومن ضربات العالم على السواء، لا يمكن أن تُنسى أو تُغفل.

ثمّ ردّدت، بنوع من التحسّر: لن تعود حياتي، بعده، كما كانت. وهو الآن قد مضى، لا أعرف له طريقاً. مع كلّ ضراوته أحياناً، وخيبته أحياناً، أفتقده، أتمنّى لو ـ فقط ـ أراه.

قلت: ما أسهل، وما أكثر زيغ التفسير بالمازوكيّة فقط. لا، ليست مازوكيّة، على الأقلّ فقط.

وقلت: أما زالت تحبّه؟ أفي حنينها أثارة حبٍّ باق؟

لن أعرف أبداً.

وهل من المهمّ أن أعرف؟

قلت: المهمّ أن تعرف هي.

استدارت، ورفعت طرف بلوزتها، في حركة مفاجئة، وقالت:

ـ انظر. ضع يدك.

رأيت التفاف السوتيان الأسود الصغير المُحكَم حول جسمها. ولمحت، على جنْب، الثديينْ المستريحينْ فيه بتماسك ولدونة.

كنّا في غرفتها الداخلية، ومن النافذة المفتوحة لمحت مئذنة أبي العبّاس المرسي، شامخة، تغوص في عمق السماء وتكاد ذؤابتها لا تبين من وراء سحب شفيفة إلى حدٍّ ما، غير داكنة.

وكان على ظهرها الغضّ ـ كأنّه ظَهْر طفلة أو صبيّة ـ دوائر رقيقة داكنة، أربع، خمس. . .

قالت: أطفأ سيجارته في ظهري، مرّة واثنتين، وبلا نهاية.

قلت ببلاهة قليلاً: وماذا فعلت؟

نظرت إليّ بغرابة، قالت: لم أشعر بشيء ساعتها. ولا شيء. خالص. لم أتحرَّك. حتّى، من فوق رجليه. شممت فقط الرائحة وسمعت صوت احتراق اللَّحم.

لمست آثار الحروق الملتئمة، كان الجلد جافًّاً وخشناً وغائراً قليلاً.
لم أقل شيئاً.

وسوف يتكرَّر هذا المشهد، حرفيًّاً تقريباً، بعد سنين طوال، وسوف ترفع بلوزتها الحرير الهندي الزرقاء عن ظهرها المكين البديع وتطلب مني أن أمسَّ أثر جرح دقيق صغير، وسوف تصدمني روعة الجسم الراسخ العاري كأنَّه صرح لا يُنال، قلتُ إنَّ ذلك حدث في تلك الغرفة الملحيّة المطلّة على بحيرة الفيّوم، وسحابها عندئذ أيضاً ملتبس يكتنف البرج الشاهق الداكن الحمرة تتوسَّط الساعة الكبيرة أعلاه ومن خلفه ما يلوح كأنَّه قلاع بيزنطيّة ويبدو مبهماً من وراء ستارة النافذة المسدلة علينا. وفي هاتين المرّتين المتكرِّرتينْ أبداً بلا انتهاء هل كانت تلك اللحظة إغواء يقصد به الإتمام والمضيّ حتّى المدى في الغواية أم كان استفزازاً وتحرّشاً تريد به الإثارة ثمَّ تنتهي به إلى التأبّي وتأكيد السطوة وإيقاع الإحباط. لن أعرف قطّ.

ألم يفز باللّذات الفاتكُ اللهجُ؟

أكان ضروريًّاً بعد ذلك أن تقول إنَّه معها لم يكن يرضى حقّاً، قطّ، إلاّ إذا رآها، في النهاية تبكي؟

كانوا نائمين في المراكب المتزاحمة المتلاصقة في فُمّ المحموديّة عند القباري، تحت بضاعتهم المرصوصة، عالية وممهَّدة.

الأشرعة مطويّة مغبّرة في نور الليل ونجوم مصابيح الشوارع مهتزَّة الإشعاع، وكانوا سود القامات محنيّة جسومهم في هذه العتمة المفتوحة، في وحشة الإنهاك التي لا تصل إليها نجدة الآن. مخازن

القطن رازحة بجدرانها الضخمة وأبوابها الحديديّة السوداء.

قلت: أتصوَّر أن جسديتها ضاربة، على دقّة تكوينها وصغر قدّها، مثل الحنايا الناعمة داخل صروح المعابد الجسيمة، مثل الحَظَايا الفينيقيّات الشرقيّات، سمراوات ومنمنمات، ولكن بانطلاق وعفويّة ولامبالاة بالمحظورات المألوفة.

ليست جافّة بل صارمة الحسيّة.

ليست أداة بل فِعل، مهما بدا من أنثويّة التلقّي.

قلت لها: لماذا أحسُّ معك أنّني وحدي، وحتّى في لحظة ذروة النشوة النهائيّة، ربّما كان يحيط بنا ما أسمّيه قَدَر الوحشة؟ أهذا من عناصر الحبّ؟

وحسّي بارتجاف الحبّ بين حقويّ من الحنوّ إذ أراك فجأة، رهيفة نحيلة يبدو أنّك بلا مَنَعة ولا حِمى؟

المحبّة سقطةُ النور على وجهك النقيّ غضّ الجلد الملتصق بالعظام الرقيقة، ليس فيه أوقيّة لحم زائدة وكلّه مع ذلك نعومة.

غواية الهيام بمستحيل.

أدخل إليها فلا أرى في حالها قراراً ولا منتهَى.

«علمي بتقصيري في حبِّك»(*).

ليس لي سكن غيرك.

ليس لي سكن

(*) الحرث المحاسبي: «المحبّة علمك بتقصيرك في حبّه».

ليس لي

ليس

قلت: لم أكن أحبّ الظلام.

لِمَ الآن أريد أن أدفن وجهي في الظلمة بين ثدييك الأسمرَيْن وتحتهما وفي ظلماتك المستكِنّة النديّة في منَف المنسيّة.

تحت وطأة سُحُب الموسيقى الثقيلة ما زالت عيناي تغرورقان بالذكرى، أحياناً.

أسعادةً أم حنوّاً عقيماً؟

لا أريد أن أنسى أنها قالت: «الموسيقى لا شأن لها بك، ولا بمشاعرك. الموسيقى مثول في ذاته». فهل قلت: «لا. موسيقاي لا حيدة فيها. موسيقاي ليست في العالم. موسيقاي أحشائي كثيفة الدم، رقراقة نقيّة كانت أم عكرة بطينتها ومتخثّرة الدِمَن».

أظنّ أنّه ليس هناك اختلاف، عند التحليل الكيميائي للخصائص الفيزيولوجيّة، بين دموع الصبا عندئذ، ودموع الكهولة.

زهرة عبّاد الشمس عملاقة منتصبة قائمة ماثلة في غرفتي الموصدة، تماماً، غارقة في الضوء الذي ليس له مصدر مرئيّ، جدرانها عالية، تماماً، سمْنيّة اللون.

لا تتحرّك الزهرة، أبداً، يغمرها دائماً هذا الضوء الثابت الذي لا أريده.

يسقط السحاب الفضيّ الرماديّ كِسفَاً.

يسقط المطر في الغرفة المقفلة التي ليس فيها نوافذ. ليس للمطر

مصـدر ولكنّه يسقط، قـطرات هادئـة متتاليـة في خيـوط لا تنقـطع، كخيـوط الخرز التي كـانت تغطّي صـالونـات الحلاقـة، زمان، ولكنْ لصوتها الآن وشيش خافت رتيب.

ويهجم الـطائر الضخم عـليّ بأجنحتـه الشـاسعـة الصلبـة وعينيـه القاهرتين المحبّتين تقريباً، يحلّق على ثَبجَ بحر مضطرب المـوج محبوس في الغرفة الموصدة ليس فيها نافذة ولا فتحة، محكمة الإغلاق، كـاملة الإحكام.

(٢) مجانين الله

«أحرقت قلبي أنوارُ وجودك»

السَمَع والراح
دا غِذا الأرواح
والخلِي مرتَاح
والشجِي حيران

النقوش العربيّة الخطوط، قطع الخياميّة الغليظة الحمراء الزرقاء البيضاء، جدران القماش التقليديّة في المياتم والأفراح، في المعازِي وليالي الأُنس، السرادق تتدلّى حواليه حبال المصابيح المدوَّرة من حبّات زجاجيّة لامعة ملوَّنة وبذيئة يضربها هواء الليل ولا تنطفئ، عقوداً مرتخية على بطن غامض الانتساب، تغرقه بضوء جارح الكريّات، موج جافّ نافذ الوقع.

وهذا العازف، محنياً على عوده الدافئ المستكين على حجره بضعةً حميمة منه، منبع النشوة، وأداتها، ومصبّها معاً.

لا شكّ تجاوز الستّين، بكثير.

شعره رماديّ أسود أملح، ناعم وحيّ، عيناه ضيّقتان مدفونتان في نورهما الداخليّ المتّقد، وجفناه ثقيلان. هل يحميان نارهما الخاصّة؟

سحرني وجهه المغضّن بتجاعيد رقيقة، مشقوقة دون أن تنفذ

للعظم. وجه جميل ومنطوٍ على دخيلته انطواءً نهائياً، شفتاه حادَّتان، في صرامة الموسيقى التي أصبحت هي نفسها جسمه النحيل.

لمحت ظهره القائم المشدود في السموكنج الأسود، والبابيون تتدلّى عقدته الحريريّة الواسعة مرتخية على قميص ناصع البياض.

أهذا المِثال موجود، ليس من جماعة الأخيلة؟

مُؤَدٍّ كامل. فَنِي في الموسيقى الجسد المصفّى من لوثاته إلاّ واحدة. أيحمل في حناياه فنّاناً مَوْءُوداً بلا بعث أبداً؟

منطوٍ على أكاديميَّته التي لقِنها حتى أصبحت فطرة، من أيام معهد الموسيقى العربيّة؟ كأنّها طوق نجاة لا يغوص، لكنّه تجاوزها، أصبحت موسيقاه إلهاماً يوميّاً وليليّاً، حلماً يجري مجرى دم الحياة نفسه.

سألت في سرّي: بِمَ كان يحلم أن يفعل، طوال هذه السنين؟ وماذا فعل بها؟

فيمَ كانت حياته؟ وفيمَ انقضت؟ وهل انقضت أحلامه ـ لا شكَّ كانت هناك ـ أم هي ماثلة لا تمضي؟

لا أراه، لا أستطيع أن أراه، بالجلاّبيّة، في بيت قديم عالٍ بَرَاح، بزجاج ملوّن مترب عتيق، وراء جامع السيِّدة نفيسة؟ هل ما زال يأكل على الطبليّة التي رافقته أيّام صباه وكفاحه، أم هجرها إلى أودة السّفْرة في شقّة ضيِّقة مودرْن؟ هل له أولاد وأحفاد، يودّونه أم يصدّون عنه؟

هل اشتغل مع العوالم ولعب مع التخت العربيّ في الأفراح والليّالي الملاح؟

هـل طلع من شارع محمـد علي، زمـانْ؟ أم تخرَّج حقّـاً من معهد فؤاد الأوَّل للموسيقى العربيّة؟

أكان يوماً يحلم بالشهرة والمجد؟ أم بالثروة والنساء؟

أم بالفنّ، فقط الفنّ؟

أي بمعرفة حميمة وسؤال لا يعرف حتّى أن يصوغ أنّه سؤال؟

وهل أسقط ذلك كلّه من دمه، أم هو مقوّمه، حتّى النهاية؟

ما الفاجع في وجهه؟ وفي عمره؟

لماذا إذن هذا الكمال الكامل في أدائه موسيقاه؟ هذا الفَنَاء؟

ألحياته غير هذا الفَنَاء معنى؟

من الـلاَّتي أحبّهنَّ؟ هل بقيتْ معـه زوجة، في حـارة من حـواري باب الخلق، أو الحسينيّة؟ في شارع خالٍ واسع تظلّله أشجـار الجمّيز في الحلميّة؟ أم تراها، إن كانت قد رافقته، بـالحسنى أو ببلاء لا يكـاد يطاق، قد غادرتْه إلى حفيرٍ مهجورٍ الآن، أو ينمـو على كـاهله الصبّار المسقِيّ بطِيب الذكرى؟ في الإمام؟ أو الخليفة؟ أكانت من حبيباته من رقص بدنها الغضّ المشتهَى على كـل تأوهّ عـوده وسجْعه وحنينـه؟ أمَا كانت منهنَّ من غنّت له، في الصهَبـة والصبا وصَهْللة الخمـر العتيق؟ في دهبيّة على رقـرقة ميـاه النيل أو في دمـدمتها بمـوج الفيضان الأحمـر البهيج الغَضوب؟

أم أنَّه لم يعرف من الحبِّ إلاَّ تلمّسه هذا العـود الناعم الاستـدارة

وحسّ أصابعه المرهفة بموسيقى كأنّما لا يسمعها غيره، وكل سعيه اللاعج أن يسمعها معه الآخرون؟

جنون الحبّ النهائي. الجنون بالله.
جنون لا مكافأة له إلاّ به، وفيه.

قلت لها: عَرَضيّة الكمال. الأداء الذي لن يتكرَّر أبداً. مُهدَرٌ بعد أن يتحقَّق مرَّة واحدة لا سابق لها، لا مثيل لها، ولا يمكن أن يكون، لأنَّ خلود الكمال هنا مستحيل. من يعرف كيف كانت تراجيديَّات ايسخيلوس وسوفوكليس تُغنّى. وحتّى إذا عرفنا ـ باستحالة تكنولوجيّة أمكنت ـ فهي مرَّة واحدة عند الأوج، لا تعود، تبلغ حدّ الأبد ثمّ تقصرُ عنه. إلى الأبد، مهما قاربته المرّة بعد المرّة، وحتى إذا مسَّت هذا الحدّ مرّة أخرى مستحيلة، فعلى نحو آخر، ومن ثمّ فهو مغاير.

قالت: في عكوفك على خلود عَرَضيّة الكمال هذا نفوح رائحة المومياءات وعطن المقابر القديمة فوح الدفائن. أمَّا حرّيّة الحياة، انطلاقها، عرامتها، فتعني ضرورة انقضائها أيضاً. لكنّها لا تعوّض. يا أخي، ما دام الكمال قد تحقَّق ولو مرّة واحدة ـ فما الذّي نطلبه بعد؟

قلت: الكمال في عَرَضِيَّته، في ثبوته ـ الحقّ الوحيد. وما دام زائلاً ومستحيلاً، فأين الحقّ؟

قالت: الكمال المخلّد، المثبَّت، المتحجِّر، نسخةٌ وليس أصلاً، شبح، لا حقّ فيه. انعكاسٌ وليس توقّداً لا بدّ بطبيعته أن ينطفئ. الحياة ـ كالأداء ـ غير قابلة، يا حبيبي، للتحنيط.

قلت: كم تمنَّيت لو أن اللَّحظة ـ بكل حيويَّتها ـ لا تمضي.

انظري هذا الكمال في الأداء ـ كمال فِعْل الممثِّل، العازف، المرتِّل، كمال فِعل العاشق، كمال الجنون، مرَّة واحدة ثمّ يبيد ويندثر، أليس قاتلاً؟ هو بحدّه وتعريفه زائل، لذلك قاتل. ساطع كالبرق، لا يحدث أبداً مرَّتين. الفنّ ـ عبر نزوات الأداء ـ مختلف. لمادَّة الفنّ ادِّعاءٌ للخلود، أو على الأقلّ ادّعاءٌ للبقاء أطول قليلاً.

قالت: حتَّى في هذا الخلود لمادّة الفنّ الأصليّة ـ هل نقول هذا؟ ـ أو ادّعاء البقاء، حتَّى هذا لا أعرف منه ـ كلّ مرّة إلّا خبرة عابرة، غير متكرِّرة، خبرة هي منيّ أنا أداء أيضاً، هي في كلّ مرّة غير متكرِّرة، ذاهبة أيضاً إلى غيرِ رجوع. وماذا في ذلك؟ ألم تحدث؟ فيمَ يعنيني بقاؤها، خارجاً عنّي؟

قلت: بل أفتقِد سارة برنار، أفتقد شيكسبير الممثِّل لا الشاعر، أفتقد أداءات جاءت وراحت منذ عهد عاد، آلاف الآلاف من الأداءات، قيان الأصفهاني ومغنّوه الذين يغشى عليهم ساعة ثمّ تفيض أرواحهم أمام جنون الكمال. عازفات الهارپ المصريّات المنحوتات على الحجر، صامتات الآن وإلى الأبد، المترنِّمات وفي أيديهنّ ليرا هيرميس، والقيثارة العريقة، أين أداؤهنّ؟ أين كماله، وكيف كان؟ جنود الأوركسترات المجهولون، قبل الكهرباء والاليكترونات وقبل أديسون، أليس حراماً أن أداءهم قد قضى وانقضى كلّ مرّة انقضاءً تامًّا ومبرماً؟ تراتيل الشمامسة ومزامير الأراخنة، موتسارت عازفاً وسِكْوِينْسات هيرمانوس كونتراكتوس، ناي بيداس الأجريجومِنِيّ وطرومبيتة هيرودوروس الميجاريّ، قصائد

سـلامة حجـازي لا أشباحهـا بخرفشـاتها وخُنّتهـا المعدنيّـة وصداهـا الميكانيكيّ، منشدو «أبو زيد» الهلاليّ على الـربابـة، والمدائـح النبويّـة على الأرغول والسمسميّة، عبده الحـامولي وعنـان الناطفي، اسحـاق الموصليّ وتلميذه زرياب، وبذْل الجارية وألمظ المصريّة ومَتِيم الهاشميّـة وعليّة بنت المهدي وجيْداء سيف الدولـة وحَبّابـة وعَزّة الميـلاء وخليدة المكيّـة. . أين هنّ، أعني أين أداء ما تغنّـين بـه ومـا عـزفـوه؟ وكـلّ العشّاق الذين قضوا نحبهم بعد فعـل للعشق تتيُّماً وفقـداناً للقلب في موت العشق.

قالت: يا مجنون.
قلت: أما لهذا الليل من آخر؟
ولا للشوق آخر.

طـال السرى، وشطّت الشقّـة، واستحصد النـأي، فـأين المـرأىٰ ومتى المعاد؟

أمّا الرصيف والصِنْـو فقد كـانت ساحـة سيِّدنـا الحسين سـاحتَه، وكانت في الخمسينات براحاً وبراء من الديكـور الهشّ الذي أوقعـوها فيه، ولمّا كنّا نخرج من الفيشاوي القديم على وِشّ الفجر، مع ألفريد ونجيب وحمدي وأخيه الأصغر عبد الله وصلاح عندما كان مدرِّساً مـا زال، كان الميدان رحبتَه، هو، وملكوتَه، تتخايل فيه مصابيح الشارع وقد أخذت تشحب ويصفرّ نورها استشرافاً لإشراق وشيك.

كان يلبس عدّة جلاليب أحدها فوق الآخـر ومع ذلـك فإنَّ عَـظْم صـدره المضلّع يظهـر من ورائها جميعـاً، يمشي حافيـاً على الأسفلت،

قـدماه سـوداوان تقريبـاً مفلطحتان تقـريباً أصـابعهما عـريضة خشنـة الأظافر. ويربط وسطه بحبل غسيل.

أشعث الشعر، طبعاً، وجهه طويل داكن السمرة وضاوٍ.

قشِف الهيئة ولكنّه منـير السطوع من داخله، وخُلقـانه المتهتِّكـة لا تضيره ولا تنال من حسن ما في طلعته.

كان صموتاً، ولكنّه فجأة صرخ في هدأة آخـر الليل أوّل الفجـر، ولصيحته صدى في الساحة الخاوية:

ـ مش أنا، مش أنا. هُوّه.. !

لا يبرّىء نفسه من إثم، بل فخور، على نحو ما، بالانتساب، بل التوحّد.

ثمّ انحنى عـلى نفسه، كـأنّه يناجيها، أو ينـاجي من يقـطن فيهـا ويملؤها، بلا حِوَل ولا نقلة، وهمس:

ـ يا حبيبي، يا بويا، يا بويا...

ثمّ صاح من جديد من قلب محروق:

ـ مش أنا.. هُوَّه.. أنا.. هُوَّه..

أطار طائراً كان يكِنّ في كِنّ صدري.

كلّما سمعت النداء انشرخ قلبي، وندّ النِّداءُ عنّي.

انـطفأت مصـابيح الميـدان مرّة واحـدة، بصوت طقـطقة مكتـومة متتالية، كأنّما انكسرت من صرخة وجده ونشوته وشقوته معاً. غيّمت السماء فوقه، لم يعد إلاّ نور شحوب الفجر ـ كأنّـه جُوّانّي ـ ينشقّ عنـه حبٌّ عظيم.

ـ يا حبيبي . . يا حبيبي . .

سمعتُها منه بأصواتٍ ونغماتٍ متراوحة من النقيض إلى النقيض، أصوات نداءٍ وتوجُّعٍ واستنجاد وشهوة، أصوات أمانٍ وتَحَدٍّ ونشوةٍ وامتثال وألم وسعادة موجَعة كأنَّها في لحظة القذف الأخيرة. من أين جاءت له هذه الموسيقات الشتّى؟ كلّها متآلفة مع ذلك يعزفها شوقٌ مُحْيٍ وقتول.

ليس فيه مَوْءُود، كلّه حيّ، لا مكان في داخله لدفين، أُقنومٌ من أقانيم نار متّقدة في مادّة الجمرة الواحدة المتماسكة، هو والأب، وروح الجنون. لم يعد ثمّ حجاز بين الإلهام والأداء، قدّوسُ الحسين الرثّ الذي يضحكون عليه ويعيّرونه وتعبره النظرات بازدراء، بل أسوأ، بلا اهتمام.

جاءت نداءات الفجر وتردّدات لغطه في الميدان تصطدم بالجدران السامقة وتنزل من المئذنة البيزنطيّة التي تطعن السحاب طعنة الحبّ الدائمة، حيٌّ على الصلاة وباعة الإفطار: لوز، المدمّس يا لوز، الله أكبر، أشهد أنّ . . وكانت أعمدة الجامع الرشيقة المتتابعة وصحنه المكسوّ بالسجاد، عتبته الرخاميّة البيضاء وقناديله المدلاّة من السقف العالي أرْوَحَ في حِسيّ من نجوم الليل المشتبكة. كانت متواترة برسالة تحمل الآن هدهدة المخاوف والهواجس مريحة وداعية إلى سلام عزيز.

ثمّ تقطعني صرخات باعة الأخبار وأقاويل الساسة ودعوات التحريض أهرام مصري الزمان الوفد والمرأة المكحولة مقموطة الرأس بعصابة سوداء لها ترتر صفيح يبدو خفيف الوزن هفهافاً، وصدرها

ناهض وراء القميص البمبي الباهت خشن النسيج في بياض الفجر، تحت تقويرة فستانها الأسود الذي سفّ أسفلُه ترابَ الساحة. تنضح عيناها بشهويّة خاصّة مكتومة ومفضوحة معاً: «خُذ منّي واذكُرْ حبيبك، مَلْبَنْ والنبي، مهلّبيّة». جاءت على مهل ذئابُ النهار وحملانُه معاً عساكر المرور وصبيان مطاعم الفَتّة والكوارع والكباب وباعة السِبَح والعطر والبخور «تمسحْ يا بيه» العيال البوهيجيّة بصناديقهم الملّونة وزجاجات البوية والعلب المسطّحة الدائريّة القهوجيّة يرفعون الأبواب ويمسحون النَصْبَة ويُنزلون الكراسي من على الموائد الرّخام، الأكشاك السهرانة طوال الليل أطفأت أنوارها وصَحْوُ حياة الميدان يعود إليه، أمّا حضور الجنون فيذوب في نور اقتحام الصبح.

صرخته الأخيرة سمعتها لآخر مرّة:

ـ إنتَ، هُوَّ انْتَ، كلُّه من تحت راسك انْتَ.

قلت: ارتفعت الحشمة عندما تمّت شروط المحبّة.

كما ينبغي أن يكون.

مباحٌ ـ بل منشودٌ ـ أن تتهتّك في الغرام.

لا تهتِكْ قلبي حتى التمزّق، لا تهتِكْه، لم يعد فيه خيطٌ على خيط.

وليست الهتيكة من شيمتك.

لا، بل لسنا نفعل إلّاها.

اجفُني ما شئت. ابعدْ عنّي، اصمتْ حتّى ما أسمع منك صوتاً، لا تنقصُ محبّتي. أنت السبب.

لوعة المُسَارّة، كأنّما لا يريد أن يسمعه أحد إلّاه.

يقف تحت القبّة. السماء الجرداء ليس فيها شيء.

ويهتف: يا حبيبي.

قناديل الجامع صدرتْ عنها فجأة أصواتُ طقطقةٍ متعاقبة، كأنّها طلقات رصاص.

وتكسّرت كلّها.

سقط الزجاج وانطلقت شرارات الكهرباء الحمراء الخاطفة، بقرقعة خافتة.

وساد ظلامُ ما قبل الفجر.

قرأت في «المصري» عُثِر على المدعو متولّي ولا يُعرف له لقب وقد مات متأثّراً بطعنة من آلة حادّة، نافذة إلى القلب. قال الشهود إنّ القتيل كان من مجاذيب الحسين المعروفين. ولم توجد في حوزته أوراق تدلّ على شخصيّته. واستدلّ بعض الأهالي على أنّه كان منذ مدّة طويلة يعزف في الأفراح مع فرق العوالم في شارع محمد علي، ولم تصل التحرّيات حتّى الآن إلى دليل قاطع على هويّته.

كان حدُّ السكّين مرهفاً وعذباً وهي تغوص في قلبي. لا ألم، بل حسّ حادّ بارد سرعان ما انجاب، خطفة برق في عمق اللّحم، دفق الدم، انبجاس داخلي يغرقني بسائل ثقيل حارّ ويدي محيطة، بإحكام، بالمقبض، أحسّ تدوير الخشب وملاسته ودِفْئه.

رسائل الشوق التي أكتبها، لولا البِعاد لبلّغتُها فاكِ.

هذا القلب الأبلق الفَرْد تعتوره جُثُوم الذِكَر فلا تنال منه أبداً ولا تريم.

الشوق يقتله.

ما زلت أحسّ ضغطة شفتيها حوله. أحسّها تستطعمه، بل يسري في جسمها كلّه فيصبح، هو، هي، سخونة تنفّسها في الحِرْز الحَريز والنداوة المبلولة الحارّة نشوة تَوَحُّد مُتَنَزِّهٍ عن منفعة اللّذّة وهو في ذُرَى منها متعاقبة، تَوَحُّدٌ محتوم.

في الزمن الآخر كنت قد هتفت، مجدّفاً قليلاً ومغالياً قليلاً بلا شكّ، دون أن أعي، في حُمَيّا عَرام كَمالِ نشوتي:

ـ الآن لا أريد منك شيئاً. لا منك ولا من ملائكتك، ولا أخشى منك شيئاً، لا منك ولا من شياطينك. الآن اكتمل لي كلّ شيء. ولن تحمل لي الحياة شيئاً بعد، لأنني عرفت الوحدة بك.

لا، لم أكن مغالياً في كثير أو قليل.

هذا بالضبط ما كنت أعنيه.

كان الزجاج مقفلاً علينا يُسكت أصوات العالم في الخارج ويغمر جسمينا بموسيقى حسّيّة داخلية لا توصف.

لم يزد حبّي إلاّ تمادياً.

إلى أين مضينا؟

وتفرّقت بنا المسالك؟

قالت: لماذا تصرّ على أن يكون الجنس إلهيّاً، ميتافيزيقيّاً على الأقلّ؟ الجنس هو الجنس. لا غيره. ممتع صحيح، وعظيم، ومرتبط بحبّ يزيده غِنىً، ولا شكّ فيه، ولكنّه ليس إلاّ فعل الجنس.

قلت بإيجازٍ وقطع، على غير عادتي:

- غير صحيح.
كُلٌّ يُجَن بالله على طريقته.
صحيح أنَّ كلَّ شيء فيه مَسّ الإلّه.
أمَّا هذا فهو الإلهيّ، نفسه، لا ريب عندي.
ونشواتٌ إلّهيّة قليلةٌ أخرى.

أمّا النور فقد كان مطفأً في كوبري السلطان، أعمدته الحديديّة الباذخة رصينة الزخرفة تلتمع في نور السماء وحده، والنيل قد انحسر، وهبط، ماؤه رصاصيّ قاتم وثقيل، قليل الرقرقة، ما زالت فيه مع ذلك أثارة من الألوهيّة المهدرة. هل غاضت دموع رَعْ؟ هل يظلّ حابي مصفّداً بين جسرين حجريّين مُستَنْفَد القُوى، بعيداً عن منابعه؟ ألم يخلق الإلّه القديم كلّ البشر من قَطْر دموعه ومنها كان النيل يفيض؟ سيل الدموع الآن محبوس ومتصاعد وعقيم.

كانت أنوار المصابيح الخلفيّة للسيّارات، أمامنا وإلى جانبينا، حمراء ميكانيكيّة النور متتالية تومض بنبض بارد وتتحرّك بصمت في عمق الليل، النور الأحمر يسقط على وجهها الأسمر المحايد في جماله الأسيل، النور الأحمر ينساب وينسال على شعرها الأسود المنسدل.
- كِيمِي كِيمِي
صرختي جرحي المفتوح.

أمّا الكوبري فما زال في الظلام، كأنّه هو الذي يتحرّك بنا لا السيّارة الفولكس القديمة الحميمة التي ضاعت. فكأنّما، هذه القوقعة المغلقة الزجاج علينا، هي الأرض قد ثبتت في لحظة وتأبّدت.

شعـر كلّ شعـراء العالم، الـذي لن أقرأه أبـداً، في الجنون بـالله، أجوهرته الدقيقة الواحدة مغروسـة ما زالت في السـويداء، أم نُـزِعت مني؟

الدم الأسود الشحيح يتقطَّر من الثقب الـذي تركتـه ماسَـةُ الشعر القاطعة، ماسَةُ الحبّ القاطعة.

أفرّ من وجْدي.
إلاَمَ المفرّ؟
كم ركبت الهوى وشطَّت بي سكراته.
مازلت ـ بعد هـذا العمر ـ تضحكني قليلاً.

لماذا تأخذ هذا ـ كلّه ـ مأخذ الجدّ، أكثر قليلاً ممَّا ينبغي؟
أليس هذا ساذجاً إلى حدٍّ ما؟

لأنَّ هذا كله جدِّيّ في النهاية، جدِّيّ حقَّاً، للغاية، مهما ضحكت منـه أو عليه. ثمَّ إنَّ مجـرَّد سؤالك هـذا، ماذا يعني؟ يعني أنَّـك فعلاً توقن بهذه الجدِّيَّة كلّها.
أم أنت تتحفَّظ عليها؟

وكـأنِّي أريـد أن أخـرج من شـوارع الـظلام، من تلك الـطرق والسكك والحواري والساحات التي تضيق حـولي ولا أني أذرعها ليـلاً في نومي وفي اختناقات فجري وفحشي أتخبَّط بـين بيوتهـا أطرقهـا ولا أني أعود إليها، وأعود، مرَّة بعد مرَّة، لا خلاص منها أبداً.

سئمت الضرب العقيم في شـوارع الحلم والنوم التي أعـود إليهـا، برغمي، كما أعود إلى بيت متواشح الدروب متشابك المسالك أعرفها كلّها

حقّ المعرفة ودائماً جديدة عليّ غير مطروقة، أريد أن أخرج منها، أين المخرج؟

أعرف أنّها وَهْمٌ ولكن لا حِسّ عندي إلّا بوطأة الحقيقة الرازحة فيها، وأنا في ضلالي وتِيْهي ولوعة بحثي عن المخرج، جاحدةً هذه الشوارع المألوفة كأنّها الشوارع المفضية إلى بيتي الذي لا أجده ولا أصل إليه وأعرف مع ذلك أنّه هناك. شوارع الحلم الخارقة أكثر وجوداً من أيّ موضع آخر في أيّ عالم آخر.

كأنّني أريد الشمس. أين هي؟

كأنّني أريد أن أحترق في صيفها، فلا يبقى من جسمي - هذا المعذّبِ - شيء.

لأنّه مكتوبٌ أنّ أزهار الجنون الوحشيّة لا تتفتّحُ إلّا في الحلم.

«دعا باسم ليلى غيرها فكأنّما أطار طائراً كان في صدري المجنون»

«وحبّك ما يزداد إلّا تمادياً»

العرجي

«رأيت سمنوناً يتكلّم في المحبّة فتكسّرت قناديل المسجد كلّها»

ابن مسروق

(٣) الرّملة البيضا

حتّى رمل العالم مقرونٌ بزوال

كـانت سيَّارة الـرئاسـة السوداء المكشـوفة قـد مرّت بـآخر ميـدان الأوبـرا القديم الفسيـح، أمام كـازينو صفيّـة حلمي بـالضبط، وهي تدور الآن في الشارع الضيِّق المفضي إلى العتبة ثمَّ إلى الأزهر.

وكان الرجل الفارع الأسمر يلوّح بذراعه للنَّاس الـذين لم يكونـوا كثـيرين في يوم الجمعـة هذا ولكنّهم كـانوا حقيقيّـين. (لم يكن نـظام تأجير الناس قد ابتُدِع ورَسَخ بعـد، بخمسة وعشرين قـرشاً في الأوّل ثمَّ بالتتالي بخمسين قرشاً وجنيه حتّى خمسة جنيه عند زيارة نيكسون، ولا كانت تنظم إجراءات المواكب واللافتات والمظاهرات «الجماهيريّـة» باستنفار المصانع والمدارس في يوم إجازة مفاجىء ومضاعف الأجر).

رأيت الموكب الصغير يبطئ ويتوقّف بالفعل لحـظة عند الـدوران. بنت صغيرة ـ أم هو ولد لم أتبيّن تماماً ـ انـدفعت إلى السيَّارة واحتكّت بها.

أشـار الرجـل الـطويـل، فـي حلتـه العسكـريّـة، وانحنى يسـأل. وعندما أطمـأنّ استأنف المـوكب رحلته. وسمعنـاه (بعد ذلـك، عدّة مـرَّات) يخطب بصـوت مبحوح يـرتجل وينـدفع ويستحثّ ويستنجـد مستميتاً ويهزّ القلوب. كان يحسّ نفسه ـ بوضوح ـ مهدَّداً.

قلت: لم يسأل عندما كانوا يخبطونهم خبط عشواء على مادّة أجسامهم الحيّة وعظامهم، بِغِلٍّ ووحشيّة؟ عندما كانوا يضربونهم على باطن القدمين حتّى يتورّما، وهم مع ذلك يرفضون أن يقولوها: «أنا مَرَة» ولم يصرخوا من الألم؟ عندما قتلوا منهم واحداً ثمّ اثنين، وثلاثة، وأكثر، في الأوردي، وطنطا، والفيّوم، والواحات، حتى سأل عنهم تيتو، وأصبحت المسألة قضيّة علاقات دوليّة؟

أين منّا الآن ـ مع ذلك ـ هذا الصرح العظيم؟

وأين فيالق الشهداء الذين لا اسم لهم، من سيبيريا إلى سيناء؟ من أندونيسيا إلى سجون الواحات والمحاريق؟ من الديسمبريّين إلى كوميونة باريس، من دنشواي إلى صحراء أبشيهيت، من شوارع فييناً إلى ساحات فايمار، من سهول الغرب إلى سهوب أفريقيا؟ وكم سقطوا في الهاسيندات ومصانع النسيج من أمريكا اللاتينيّة إلى المحلّة الكبرى؟

جحافل وفرق وفصائل باسلة وأجيال وراء أجيال.

قلت: أين منّا رؤى الحرب الأهليّة الإسبانيّة والمقاومة السرّيّة المستميتة في وجه اجتياح جحافل النازيّة؟ أين الفيلق الدوليّ؟ وأعلام «البووم» والاشتراكي الإسباني، حمراء خالصة، والفوضويّون أعلامهم حمراء سوداء؟ أين الشهداء من لوركا إلى كودويل إلى آلاف التروتسكيّين والجمهوريّين والنقابيّين؟ هل سقطت إلى الأبد هذه الألوية؟ وحتّى إذا عادت إلى تلك الرمال والصخور أتُبْرِئها من دنسها، وتُبرّرها؟

بلا مجد، ولا نصر، ولا نُصُب، ولا اسم.
لا يمكن أن يكونوا جميعاً قد ذهبوا، بلا رجعة ولا أثر؟
قلت بيأس: لا يمكن.
اليأس مُحْيٍ، اليأس لا يُميت.
ومراثي الأرض كلّها لا تنفع.
ما نفع المراثي، أبداً؟
وما للتفجُّع من معنى.

حصان جيرنيكا المخصيّ المموّه بخطوط ونقوش ملبس الصاعقة صدئت جنازيره والتوت مدافعه وانكسر قضيبه فاغراً فوهة صدره التي احترق حديدها، ساقاه، مكسورة سلاسلها، رابضاً يظنّ نفسه يركض صرخته صامتة إلى الأبد عُقبان سينا تسقط على جثثنا المصروعة على غرّة تنهش منها المِزَعَ الكلابُ البرّيّة تنازِعها بشراسة غير محسوبة.

سمعنا من بعيد هدّة سقوط القنابل خافتة مكتومة.

وعرفنا أنّ مطار ألماظة ومعسكراتها ضربت وأنّ الطيران انقطع.

وكنّا كلّ ليلة إذا أصغينا جيّداً سمعنا أحياناً أزيز طائرات غير مرئيّة ومهدّدة ذكّرتني بغارات الطلاينة على اسكندريّة من سنوات تبدو لي بعيدة جدّاً في متاهات الصبا.

في فناء مدرسة الإصلاح الخاصّة في المنيرة تحت الشجرة الهادئة الضخمة في الصباح الصافي، كنت مع الطلبة والشباب الذين لا أعرفهم أقف في الطابور غير المستقيم تماماً إذ تسري فيه روح

مضطربة وقويّة. وبعد ثلاثة أيّام من التدريبات أخذت بندقيّـة وتعيين ذخيرة حيّة وصرفوا لي جاكتّـه وبنطلون كاكي مع حزام عسكري.

كأنّما كنت، أخيراً، قد عدت إلى العمل الثوريّ ولكنّه هـذه المرّة في نـور الصبح، وليس تحت سجف الكفـاح السـرّيّ تحت الأرض. كأنّما كنت أجهر أخيراً بمـا يجيش فيّ من غضب وشوق ولا أنفّس عنـه فقط في الدعوة الملحّة المبحوحـة للعدل. كنت الآن أضربُ ـ أو عـلى وشـك أن أضرب ـ في العلن، ضـدّ اقتحـام قـاسٍ، ضـدّ اغتصـاب لشيء لم أكن أعرف، إلى هذا الحدّ، مدى معزّته عنـدي، وفي الوقت نفسه ضدّ ما أحسسته بغموضٍ فَوَرَان طينٍ فاسـد تحت قدميّ، ضـدّ خروجٍ لِخَبَثٍ كان قد كُبت مؤقّتاً، ضدّ انفجار لشهـواتِ نهبٍ وهبش كان قد دفع بها للاختفاء مؤقّتاً، وتقلّب ذلك كلّه على سطح الأرض.

قلت لنفسي عبارة الاكليشيه التي لا أجد أحسن منها الآن:

ـ «كفـاح ضدّ غـزو خـارجيّ وضـدّ انقـلاب رجعيّ يـدبّـر لـه في الخفاء، ومع ثورة وطنيّة تتأكّد يوماً بعد يوم، في وقت معاً».

قلت: «أليست عبارات القوالب الجاهزة مُنْجِدَة؟».

كالحبّ.

ما أشدّ قالبيّته هذا القالب الجاهز المكّرس، ما أشدّ جفافه، لم يعد يعني شيئاً تقريباً. لكنّه يخبّئ في طواياه معاني كثيرة، عنيفة بالحياة.

بدأنا التدريب على السلاح يومها في حوش المـدرسة. وعـرفت أنّ المقاومة الشعبيّة ليست كلاماً. كانت القاهرة بالليل مـظلمة، كُحْـل، وفي هذا الشتاء الـدافئ كان الهـواء الليليّ يهبّ في شـوارعها وميـادينها

ويسنـد القلب. ولـولا أنّني كنت قـد حفـظت ـ بعـد مجيئي من اسكندريّة ـ شكل ميدان التحرير وشارع سليمان لما وصلت، بالحدس وتلمّس الأرض، إلى شارع جلال لألتقي بألفريـد في «الجمهوريّـة». قـال لي: «هذا مكتب القـائمقام أنـور السـادات، وهنـا كـان يجلس صلاح سالم». ولم أعطِ هذا كبير اهتمام.

الملح يُصلح الأرض، أليس كذلك؟ فإن فسد. . !
وإذا كان الملح شرّاً فإنه يغطّي سطح الأرض.

كانت تسري في المحطّة الفسيحة روح من الصمت والترقّب. وقد بـدا زجاج سقفهـا مرئيّـاً لأوّل مرّة تحت السـماء الليليّة، دائـماً كـانت تخفيه، بشكلٍ ما، أنوارُ المصابيح الكهربائيّة التي تبدو كـريّاتهـا الآن مطفأة وراء دهانها الأزرق الكالـح القاتم. صـدر عن القاطـرة صفير موجز عميق يأخذ بـالمشاعـر ويتردّد لـه صدى شـاسع، وينقـطع على الفور. وعلى الأرصفة كان العساكر نائمين أو ممدّدين أو متكوّرين على أنفسهم أجنّة ضخمة في الكاكي المشعّث والأحزمة العريضة والأحذية الميري باهتـة الجلد، بجانب أكـوام البـطاطـين والعُهْـدة العسكـريّـة الملفوفة المربوطة بإحكام، بُنّيّة داكنة. ينتظرون، بـلا شكّ، قـطارات السويس والاسماعيليّة وبورسعيد وخطّ القنال ومحطّات الشرقيّة.

أحببت أن أردّد لنفسي قالباً آخر، لم أجد نجدة إلّا فيه. قلت:

ـ بحـري وشـواطئي وصحـراء وحـدتي ومعـاشقي وأرضي وتـرابي وعظام أجدادي. كلّها في الدم.

هـذا الحسّ المدفـون بهذه الأرض البحـر السماء، ونـاسها، كـامنة

ومدفئة، وهذا التمرُّد الكامن القائم أبداً، انتصاب القلب أمام الله.
أم أنّه هكذا بالفعل تجري الأمور؟

وقلت: أسكُتْ، أسكت يا أخي. كم مرّة أقول لك إنّ الكلام تشويهٌ لا مفرّ منه، وخيانة.
كانت قد وصلتني للمحطّة.

قالت: أنا عادة لا أوصّل أحداً أبداً للمحطّات. لا أحبّ ولا أريد التوديعات، اللحظات الثقيلة التي لا نجد فيها ما نقول إلّا كلاماً شائعاً مبتذلاً لا يعني في الغالب شيئاً.

قلت باختصار: ولا أنا.

كنت قد انتظرتها ـ كالموعد المضروب ـ في قهوة متاتيا أمام المسرح. أعمدة القهوة قديمة رثّة الشكل ولا أحد ـ لا أحد؟ ـ يعرف لها معنى. والأوبرا تبدو روّاغة مخاتلة في الغروب المخايل من وراء أشجار النّخل السلطانيّ وتمثال القائد البرونزيّ التاريخيّ على فرسه الصافنة يشير إلى لا شيء.

كانت قد قالت: «الساعة الخامسة والنصف تقريباً، أو يعني بعدها بقليل، أو قبلها بقليل، ما يْضُرُّش». وكان موعد قطاري في الثامنة، وحينما استأثر القلق والتوفّز بي ـ كنت قد نظرت إلى ساعتي مرّات لا عداد لها وكنت أجدها دائماً السادسة إلّا ربعاً، إلّا أربع عشرة دقيقة، وبعد أبدٍ من التصبُّر وكبح العين، إلّا إحدى عشرة دقيقة، ثمّ مرّات لا نهاية لها: إلّا دقيقتين، ودقيقة، وخمس دقائق، والأفكار والهواجس

مستبـدّة ـ دفعتُ الحسـاب، وقفتُ عـلى الـرصيف، ذرعتُ مســافـة العشرة أمتار أمام القهوة مرّات كثيرة جدًّاً ومملّة.

وعنـدما تهـادتْ الفولكس البيضـاء الشاحبـة أخيراً في نـور الغسق الخابي بسرعة، كان ذلك آخر النّهار، بعد اصفرار الشمس.

زمَّــرتْ، فتحتُ لي البـاب، قــالت بغضب مـداعِب أو جــادّ لا أدري:

ـ لمـاذا وقفت؟ وتركت القهـوة؟ لماذا القلق؟ يـا عديم الصـبر! يـا قليـل الإيمان! وتْـلاقَيـك ضربت عَشَـرْةَ آلاف أخمـاس في أسـداس، وطلّعْت فيَّ القُطَط الفَطسا.. يا قليـل الإيمان! أنت تعـرف.. الناس تنتظرني الآن في البيت، تأخّرت عليهم ولولا خاطرك عنـدي ما كنت جيت.

كنت أعرف أنّها جاءت من عنـد صديق قـديم لها يـزور البلد بعد غيــاب، وكـانت، هي، تعــرف أنَّ روحي تمــزِّقهــا الــوســاوس والتخيُّلات.

مقدرتها اللانهائيّة على الإسرار والإخبار.

وصلنا إلى باب المحطّة فجأة، كأنُّما على غير توقّع، وعندما أدركت ذلك هممت بالنزول دون تروٍّ، دون تدبّر، في اندفاعات الحركـة التي تأتيني بينها أنا مغمور بحلم أو بـوحشة، لا أعـرف تمامـاً ماذا أفعـل. أوشكت أن أفتح باب العربة، آلياً، وأن أنزل.

ضغطت بأصبع ممدودة على كتفي وقالت: هيه.. هات بوسة..!

أدركت مدى لهْوَجتي، وعدتُ إلى شفتيها. كـانت حارّة ومنعشـة، طازجة وغضّة، مرتجفة وراسخة في وقت واحد.

أرفض مع ذلك أن أتلقّى وداعك. فليس لك عندي وداع أبداً.
أجيريني سيّدتي فإني غريق.

أيّة طاقةٍ في هذا الحبّ، متفجّرة أبداً بلا انقضاء؟
كيف، والحياة تنقضي، يبقىٰ؟

سحـابة الكلمات ـ بجـانب النيران المتلظّيـة بألسنـة حادّة لا تمسّ ـ تبدو شاحبة، مُفْرَغة.

مازال يحتشد بك.

في صراعات واختناقات الحبّ التي لا تريد أن تنتهي.

مازال قلبـي يختنق بفَيْض حبّك.

مـاذا أفعل ـ وتفعلين ـ بهـذا الدفْق من الإعـزاز والشوق والمبـاهج الساطعة في الذاكرة، حيَّة، بأوجاع مازالت كاوية؟
أهذه أيضاً من سمات العمر المنقضي؟

كيف أخفي عنك ـ وعنكم ـ عينيْ هذا الشيـخ الطفـل، الممتلئتين بالدموع؟
أي كيمي.. يا كيمي.. كيمي..!

أكانت كلّ محبّاتي إرهاصات بحبِّك تنذرني به، أو تبشّرني؟
في أية حيوات متعاقبة؟

في زمن سحيق كانت «الكُوتر» تميل بشراعها الأبيض الوحيـد على

ثَبَج موج البحر المفتوح في قلب المينا الغربيّة، عميق الزرقة تحت نور القمر الصاحي، الحارّ، ونحن في طريقنا إلى الرملة البيضا، كان معنا البيرة والسندوتشات والجاتوهات، وكنّا لابْسين المايّوهات تحت القمصان والبلوزات والجيبات، وما إن لاح اللسان الرمليّ الناعم الفضيّ حتّى رمينا بالملابس الخفيفة في قاع المركب وعلى مقاعده الخشبيّة، ورمينا بأنفسنا إلى الماء، وتسابقنا حتّى الحافّة، تسلّقنا الصخر الزلق المائيّ والمنحوت الرمليّ حتّى الربوات الطريّة المرحّبة، وكانت صناديق البيرة وكرتونات السندوتشات قد حملها صبيّ المراكبيّ، ودار البيك آب الصغير. إبرته الدقيقة، بحرص، تدور بأهون خرفشة بعيداً عن الرمال، ولكنّنا كنّا قد بدأنا الرقص على اسطوانات «بيزامي موتْشو» و«كوانتا لاميرا» أو «بلومون» و«الكومبارسيتا» و«لي فييّ تان» يعني «يا للزمن القديم». . !

أهذا كلّه حدث؟

أكنّ هناك، بنات وجدعان نوادي البنك الأهلي وجناكليس وباركليز والملح والصودا، وأصدقاؤهنّ وصديقاتهم؟ والكلام بالعربي والفرنساوي والانجليزي أو خليط منها جميعاً؟ والرقص والشرب والحبّ بلغة لا تحتاج إلى بيان؟

أكنّ هناك حقّاً، بنات اسكندريّة، في عزّ الصبا، في غرارة أحلام الصبا؟

سعاد وسيلفانا وستيفو ذات الثديين الهائلين وديسبينا الرقيقة كالدمىٰ وأوديت التي أحبّتني وأنكرتني لأنّي أحببتها وأنكرتها، وآرليت المنسرحة القامة المنسدلة الشعر وإيفيت اليهوديّة المدوّرة الغنِجة

الممتلئة بالبضاضة والشَبَق؟ اسكندرانيّة مصريّة حتّى الصميم.

في ١٤ مايو من ذلك العام الحاسم سيّئ السمعة أعلنت الطوارئ.

طرق عليّ الباب شيخُ الحارة العجوز، ليلاً، ومعه ورقة الاستدعاء.

كانت ثكنات مصطفى باشا - مصطفى كامل الآن - كلّها للجيش، لا أبراج سكنيّة فيها، ولا مسرح مثّلت عليه «ريّا وسكينة» ولا مصابيح الشوارع الكهربيّة الجديدة الشكل. بل كانت تتناثر فيها العنابر الخشبيّة ذات السقوف الجمالون بالقرميد الأحمر التي تركها الإنجليز، والتي كانت تشبه عنابر معتقل أبو قير والعامريّة، ومن مصطفى باشا ذهبنا إلى العامريّة ثم إلى ثكنات الهرم، نقطة التجميع للمنطقة. وفي اللوري الذي كان يهتزّ بنا كنت أرى، على جانب الطريق ومن مسافة داخل الصحراء، معسكرات الجيش والحرس الوطني، تبدو بعيدة وصغيرة ويتحرَّك فيها العساكر ببطء وتكاثُفٍ معاً، في عناقيد ملتفّة حول العربات الملقاة بلا صوت، كأنّها لعب. وكانت عنابر الطائرات «السرّيّة» - المبنيّة تمويهاً، على شكل بيوت لها واجهات لها نوافذ لا تطلّ على شيء - تبدو لي سافرة وخدعتها مكشوفة جدًّا. لكنّ الحماسة كانت تشتعل في نفوس المجموعة التي أسافر معها، جالسين على دِكَكٍ طوليّة في سيّارات نقل بضاعة عارية، جهّزت، بلا شكّ، على عجل، لتأخذنا.

وفي محطّة هاكستيب كانت القطارات رماديّة شاحبة البياض في

خلاء العتمة، عالية مقوّسة صغيرة النوافذ، صامتة ومظلمة وكأنّها لن تتحرّك أبداً. وأخذنا عربة الدرجة الثانية الوحيدة التي خُصّصت لنا، بمقاعدها الجلديّة اليابسة، بينما حمل العساكر لففهم وبطاطينهم ورموا بها من الأبواب والشبابيك وقفزوا إلى داخل العربات المطفأة الأنوار.

طبعاً كنت أغفو إغفاءات عصبيّة خاطفة دون أن أحسّ تماماً ـ في الطريق وفي مركز التوزيع في القنطرة ـ أنّني أسرق لحظات غياب من نصف اليقظة نصف النعاس.

وإلى الموقع أخذت عربة BTR مصفّحة ومعي مهندسان من دمنهور ومن سوهاج، وكنت أسوق العربة وشقّ النافذة العرضيّ الضيّق أمام عينيَّ يكشف لي شقّاً من الرمال البيضاء ونحن نخوض أمواجها الثابتة على جانبي الطريق المسفلت. وكنت أحمل معي أيضاً حمولة من دانات م. ط. أنقلها إلى الموقع.

قطعت هذا الطريق عدّة مرّات من أمّ مرجم إلى الختميّة إلى متلا إلى بير تمادا إلى المليز والحَسَنَة ثمّ عودة إلى الشرق حتّى كنت أسوق وأنا نصف نائم تقريباً.

في ليلة الأحد ـ الاثنين، خمسة، سمعنا لأوّل مرّة طلقات فرديّة بعيدة، وضرب هاون. قلت: لا بدّ تمرينات. ولم أهتمّ كثيراً.

بتنا ليلتها في ثكنة صغيرة مهجورة، حيطان من غير سقف دخلت الرمال بينها في أكوام غطّت أسمنت الأرضيّة تماماً وإن ظلّت دافئة من وقع الشمس عليها طول النّهار.

خطونا إلى الداخل من فتحة الباب الذي لا وجود له، نزعه البدو

بلا شكّ، فقد كانت تحت الحيطان آثار رماد أسود متفتّت عن نيران كوانين قديمة: طوبتين رأسيّتين تتّسعان لحمل كوز الشاي الصفيح المعمول من علبة قها، أو للإبريق المسودّ بالهباب، إذا كنّا مترفين ننعم بالمباهج حقّاً.

وكان ضوء الليل مريحاً وناعماً، الهواء صَحْوٌ ومنعش بعد وقدة العربة المحرقة طول النهار. الحسّ بفَرْدِ الظهر وتحريك الساقين ثمّ المَشْي عدّة خطوات، فقط، متعة حقيقيّة مع إنهاك التعب وأرق السفر ليلاً جيئة وذهاباً وفقاً لتعليمات متلاحقة.

فجأة شاهدناها تمرق بسرعة خاطفة، من جحورها في الركن بين الحائط والرمل. أرانب جبليّة كبيرة ولكن نحيلة مهدودة الجسوم. أمّا أبو النّجا فقد صمّم على أنّها جرابيع وليست أرانب، ولمّا كان فلّاحاً من المحموديّة فقد حمل كلامه وزناً لم يكن لا لكلامي ولا لرأي حسنين، فاقتنع به علي أبو النَضَر، وضحكنا كلّنا في الآخر.

أزحنا الرمال قليلاً وأشعلنا الكانون، أقراص الاسبرتو الجافّ طقطقت على الفور وتوهّجت النّار البهيجة، وشربنا قبل الأكل ما خيّل إليّ أنّه أطعم شاي شربته في حياتي، وفتحنا التعيين، علبتين بولوبيف وعلبتين عدس أسود وأقراص النعناع، سخّنّا الأكل، وشربنا تاني شاي وفردنا البطاطين ودخلنا فيها. كانت الخوذة والسلاح الشخصيّ وورق التواليت جنبي هي وحدها التي تذكّرنا بأنّنا في حرب وشيكة الوقوع. كنّا واثقين من نتيجة اللعبة كلّها ثقة كاملة، وكأنّنا في نزهة، انطلقنا إليها من الروتين اليوميّ، لبضعة أيّام.

هل غمرني النوم الهادئ على الفور؟ وأنا أسير، من غير جسم، من غير ثقل، على الرملة البيضا الساطعة، بين أعشاب جانبيّة جافّة الشكل وكثّة، تنهض أمامي ربوات عليها حصى ملوّن في نور الليل، ومتكاثف في أكوام لا أسمع له مع ذلك خشخشة تحت قدميّ؟ كأنّ هناك أنواراً صفراء باهتة مهتزّة، هل هي شُعلات نار الجاز الصغيرة في كيزان صفيح سوداء، تتخايل في الخيام الخيش الواطئة البعيدة، قائمة ومرقّعة ومشدودة بحبال قصيرة جدّاً إلى أوتاد خشبيّة غليظة على تلّة تنوس فوقها نخلات مائلات بعضها إلى بعض، متواشجة متداخلة السَعَف، وجمال نحيلة حادّة العظام منيخة تحت النخل تجترّ، رقابها الطويلة الهزيلة مقوّسة قليلاً، تهتزّ.

وعند أوّل ضوء كان عليّ أن أقود السيّارة في الصحراء راجعاً إلى موقعنا، وكانت مدقّات الرمل لا تكاد تستبين لي وسط الموج الأبيض المضطرب.

تفجّر العالم، انقضّت علينا صواعقه، فجأة، دون أن نعرف ماذا حدث.

وبعد صدمة المفاجأة التي شلّت وعينا لحظة، أدركنا طبعاً ما يجري.

كنّا عربة مصفّحة واحدة في تيه الرّمل الفسيح، وهبطت علينا «الميستِير» رماديّة مزمجرة تصفر صفيراً ثاقباً، وسقطت النابالم إلى يسارنا بالضبط على بعد أمتار قلائل، وتأجّجت بنار شرّيرة لم أرَ شيئاً في مثل خبث حمرتها، وأنا أنحرف إلى الرمل في دورة قوس واسع، أزوغ من

شعلتها. دقدقت طلقات الرشَّاش المدوّمة في دوران الطائرة وهي تنزل حتّى تكاد تصطدم بنا ثمّ تعلو في أزيز خاطف، عادت إلينا الطائرة، لكنّنا كنّا قد تركنا العربة وقذفنا بأنفسنا ـ دون أن ندري تقريباً ـ في خور ضحل الغور بجانب المدقّ الرمليّ، لم نحسّ بالخدوش التي تركها الحصى والزلط الحادّ في أيدينا ووجوهنا التي التصقت بالأرض، باستماتة، إلاّ بعد أن رمت الطائرة بقنبلتها الثانية، سقطت بعيداً إلى اليمين، ورشّتنا بطلقاتها المتلاحقة، وارتفعت من جديد، واتّجهت نحو الشرق.

قبل أن نصل إلى الحسنة في آخر النهار كنّا نعرف الآن ماذا سوف نجد، ولا نكاد نصدّق.

الرائحة المميّزة أثبتت لنا. هبّات ـ في قلب هواء الصحراء الصحو ـ من نفح الاحتراق ورائحة الدخان العطنة وبدء تحلّل الجثث، والبارود.

كانت السيّارات والمدافع والدبّابات على جانب الطرق وفي عرضها، محترقة سوداء. وكانت ثمّ انفجارات بعيدة، قويّة الهدّة، غامضة ومكتومة وغير مفهومة تماماً، رأيت أكياس سواتر الرمل المضغوطة المحشوّة أمام المخابئ وقد تفتّقت وانسكب منها الرمل في كومات منسابة، من ثقوب محترقة الحوافّ مشعّثة الاحتراق.

عندما وصلنا، أخيراً، كانت السيّارات المجنزرة واللّوريات مقلوبة ومضروبة والرادار أسلاك وأعمدة وقضبان متشابكة ومقطوعة، وعلى الأرض شظايا وزلط وقطع حديديّة مدبّبة ومعووجة، عريضة وملتوية

وعليها هباب ضبابيّ كأنّه مرشوش من علبة رذاذ «سبراي»، والجدران سوداء ومهدومة أحجارها متساقطة حيثما اتفق لها السقوط، الخوذات متناثرة على الرمل بعيداً، ومشهد الجنود ـ بعد ضربة المرأى الأولى ـ لا يكاد يمسّنا، غير انسانيّين في موتهم، في تناثر أشلائهم، وقد أخذت تلفحنا الرائحة الغريبة التي أصبحت الآن مألوفة، فوح الحريق والتحلّل والبارود وعطن الدخان والقطع البشريّة، تلفحنا وتمضي بسرعة، ومِزَق الكاكي يطير بها الهواء على الرمل الأبيض.

لمحت على البعد رتل دبّابات سنتوريون وباتون، عرفتها بعلاماتها: نجمة داود والحلقات البيضاء الثلاثة على الماسورة. كانت مدافعها مسدّدة نحونا، تومض فجأة في آخر هذا النهار ويتّقد لها وَهَجٌ حول فوهات المدافع الضاربة بثقل وتمكّن، تتبعها رشّاشات سريعة تكنس الأرض، تمسحها بمنهجيّةٍ ونظام وصحو، على طريقة التمشيط خطّاً وراء خطّ. كنّا منبطحين وراء أكوام الأنقاض، وربوات الرمل ـ وراء العربة التي أخفتها المرتفعات عن أعين الدبّابات ـ دون أن ندرك، حتّى، أنّنا قد التصقنا بالرمل، وجوهنا بين أذرعنا والخوذات قد أخفيناها تحت صدورنا، إذ كانت لامعة وبريقها وحده كان عالياً وجذّاباً للقتل. هدير الدبّابات على الطريق يملأ الأرض في إيقاع الزئير المعدنيّ المتّصل.

كم بقينا في ظلمة الرمل؟

في ظلمة الليلة الأولى انطلقت قنابل الليزر المضيئة تُعرّينا، هجرنا العربة في آخر لحظة قبل أن تضربها القذيفة، وجرينا حانين رؤوسنا إلى وهدة صخريّة عميقة إلى حدٍّ ما وعريضة الحافّة أخفتنا عن نور

الليزر، واشتعلت العربة كأنّها من ورق يحترق وغارت في حفرة فوريّة واسعة، ومرّة أخرى وأخرى كانت دقدقات الطلقات السريعة تصنع قوساً وراء قوس من الثقوب على سطح الرمل تناثرت لها هبوات خفيفة متطايرة.

تنبّهت في السكون المفاجئ، بعد الضجّة التي صمّت أسماعنا، ووجدت يدي متقبّضة على البوصلة ولفّة الخريطة، هما شيء واحد خطفته من الـ BTR في اللّحظة الأخيرة.

وجدنا المهندس أبو النجا مفتوح العينين مندهشاً قليلاً، وثقب مدوّر صغير في صدره أخذ ينزّ منه دم نزر، وعلى جانب فمه خيط من الدم الأسود ينزلق ببطء.

كنّا الآن ثلاثة، صول واثنين دُفعة. ماذا كنّا نستطيع أن نفعل؟ كلّ شيء كان مهجوراً حولنا، وصامتاً ومهدّداً في صمته. حفرنا معاً حفرة مناسبة بما وجدنا من حديد، وكنّا قد أرهقنا تماماً من الحفر عندما قرأ زميلاي الفاتحة وقرأت ما أذكر من «أبانا الذي . .» بالكاد، أفلتت منها عدّة كلمات ولكنّي ذكرت معظمها، ولم يكن مهمّاً أنّني نسيت بضع كلمات، ولم يكن مهمّاً أنّني تلوتُها دون إيمان. كنّا فقط نودّعه ونكرّمه، وليس هو وحده.

استأنفنا السير بالليل مدفوعين بقوّةٍ ما، بصمت.

تتابعت الطلقات الكاشفة في ظلمة الصحراء على شكل خطوط حمراء مقوّسة صاعدة من موقع إلى الشمال تقطع جوف السماء.

كم يوماً وليلة قطعناها معاً؟

نسير ليلاً فقط، وننام ـ ما استطعنا ـ في النهار، في حفر وجدناها جاهزة وفيها عظام جافّة، حيوانات بريّة.. أم..؟ أو نلجأ إلى خيام العرب الذين قبلونا ـ غيرهم رفضوا بحسم ـ بشرط أن نخلع اللّبس العسكري ـ لكنّني لم أهجر الخوذة قطّ، في الليل على رأسي دائماً بعد أن سوّدتها وعتّمتها بالهباب والدخان الممزوج بالجاز الوسخ من اللّوريات المهجورة، وفي النهار بين ذراعيّ وأنا نائم أو أجالد النوم ـ كان الأوفرول قد تمزّق من الانبطاح على الرمل والزلط، وكانت أصوات الطائرات المغيرة ـ حقيقيّة أو متوهّمة، سيّان ـ تئزّ في نومي، وكان حلمي بالنار السائلة على الرمل ينفضني ولكنّي لا أصحو تماماً إلاّ عند سقوط الليل.

في بير تمادا اختطفت نظرة، من الصخر، إلى الموقع في آخر ضوء للنهار، كان جنود الدفاع لايزالون جالسين على مدافعهم تماثيل جامدة وممزّقة الثياب، في غبش الغروب، لا تتحرّك، سوداء، ظلال متجسمة، محترقين بالنابالم.

من الحسنة إلى الميليز إلى بير تمادا إلى ممرّ متلا ثمّ شمالاً فغرباً إلى ممرّ الجدي وشمالاً مرّة أخرى إلى أمّ خشيب وممرّ الختميّة ثمّ أمّ مرجم من فوق المرتفعات الصلدة الخشنة وفي بطون الأخوار. بليت أحذيتنا أوّلاً ثمّ الشرابات، ولففنا أرجلنا بخرق ملابسنا الكاكي وربطناها بأربطة الحذاء وتهدّلت الخرق الملفوفة حول سيقاننا بالتدريج دون أن نشعر.

في ليلة ما، مررنا إلى جانب الطريق المسفلت عند أمّ مرجم. لم يكونوا قد استقرّوا بعد. هاجمتني رائحة اللّحم البشريّ الخامدة، التي

أخذت أعتاد عليها الآن، عطنة قليلاً، متلبّثة راكدة، بعد أن تبخّرت عصارات الجسم الذي فوجىء بالنار وهو حيّ ثمَّ تأجّجت أشلاؤه بها وتشقّقت العظام في الشعاليل المتّقدة.

كانت الفاتحة و«أبانا الذي..» آليّة الآن تقريباً، وإن لم يخفّ شيء من شحنتها، ووطأتها على الإطلاق.

تَفَجُّر حمم البراكين العضويّة، تساوقٌ غير مطلوب، تجاوُبُ القصف بالقصف، مآذن الجوامع الألفيّة الأجراس المضلّعة في الكاتدرائيّة مفكوكة مخرّمة كأنّها دانتيلاً مشتعلة لا ينتهي اشتعالها.

عناقٌ في الظلمة، يدها مرميّة على ظهري تحضنني وتستند إليّ. ليس خيالاً عيونها في عيوني ولا شيء إلاّ حلكة مطبقة ولكن هبّات النسيم الكثيفة بحمولة مدنّسة ومقدّسة تفصل بيننا.

تجري العقارب شائلة الحُمَة طويلة ومسحوبة الجسم كأنّها كلاب شائهة مصغّرة جدّاً ملتصقة بالعالم السفليّ.

كانت عربات التموين المضروبة والمهجورة هي التي أنقذت حياتنا. ملأنا جراكن البنزين الفارغة بالماء الآسن قليلاً وحشونا المخلاة الكاكي بمعلّبات قها، وكانت بقايا الكانتين المضروب قد سقطت على الأرض كرتونات البلمونت والهوليود مشقوقة نصفين بثقوب مدوّرة صغيرة في خطٍّ مقّوس قليلاً وأشلاء السلمون والسردين الذي تطاير زيته على الرمل ورائحة باقية من المدمّس المدلوق، كأنّها أثارة بخار النابت المسلوق على باب السيِّدة مع رائحة الصفيح المحترق.

بَكَرات الأسلاك الشائكة الضخمة مشرّعة السنان قنافذ حديديّة

عمياء هائلة البنطلونات الكاكي والألبسة العَبَك باهتة البياض وفانلَات صعيدي من قماش محمرّ طويلة الأكمام منشورة لا تجفّ أبداً على حبل غسيل مشدود بين سياجات من الإبر الحديديّة المسنّنة النابتة فوق الأسلاك.

موسيقى خشنة مُهدَرة الكمنجات مكسورة ملقاة بين الأنقاض على حِجارة حادّة الشظايا وأوتارها مع ذلك باقية كما هي بمعجزة سليمة مشدودة تنتظر الأصابع العاشقة العارفة.

ولأنّي كنت قد عبرت هذه الطرق والممرّات والمدقّات بالسيّارة ذهاباً وجيئة عدّة مرّات تبعاً لما جاءت به أوامر متتابعة وأحياناً متضادّة من القيادة فقد كنت الدليل لجماعتي الصغيرة، ومعي البوصلة والخريطة التي لا فائدة كبيرة منها، وكانت جراكن البنزين مملوءة بالماء. وإذ اختلط طَعْمه بالبنزين في أفواهنا الجافّة فقد حرصت على أن نبلّل شفاهنا فقط دون أن نجرع السلسال الذي له رائحة حادّة، أمّا الأكل الجافّ ـ اللوبيا والفول ـ والسلمون نأكله دون تسخين من العلب مباشرة فقد أبقانا أحياء ولكنّ الجوع كان مستمرّاً بلا انقطاع وخاصّة في نوم النهار المضطرب. بالليل، في السير الطويل كان الجوع ممكناً لأن الترقّب والتعب كان يحلّ محلّ الشبع. الإمساك كان يعذّبنا وكان جهد التبرّز ـ لا مؤاخذة ـ عن حصوات جافّة مثل بعْر المعيز شاقّاً لا يكاد يطاق، مع ما يلزم من الحزق بالصوت المكتوم، وكنّا نضحك مع ذلك بشفاه مشقوقة مؤلمة على أحدنا الآخر نهنّىء أحدنا بالنجاح الكبير أو نعزّيه حسب الحال إلى المرّة القادمة. ولكنّ الرعب الحقيقي في تلك اللحظات كان العقارب والجِناش الصغيرة التي تنطلق فجأة

تحتنا بسرعة خاطفة حتّى بعد أن نكون قد حفرنا حفرة صغيرة في الرمل، لذلك كنّا نفضّل الصخر أو الحجر الصلب العاري، وكانت أسلحتنا فقط هي أيدينا وكلّ ما نستعدّ به سلفاً من صخور أو حِجار صغيرة.

صرخات الدبّابة الحصان المرقّط الجعران المبعوث من عمق الرمل الداكن خارجاً منه بندى ملوّث ونَجَس أثداءٍ متفجّرة ومنتفخة ومدوّرة ولها حوافّ قاطعة على أجسام أنثويّة مبقورة البطون وأبضاعٌ مجثّثة مازالت منتصبة في توتّرِ شهوةٍ لن تبلغ مداها أبداً لن تقذف بمنيّها المحجوز أبداً نصفُ وجهٍ أزرق متورّم مضروب مفتوح العين الواحدة نصفُ جمجمةٍ محترقة عينها وجانبٌ من عظْمها قد سال نخاعها في النار ولم تبق منه في لظَى الشمس إلاّ حُشاشة، فاغرة فاها أمام كلاب خائنةٍ خانت أيضاً نفسها. كلاب بريّة عاوية في العتمة الدائمة عواء مشروخاً وخائفاً ومستمتعاً بنفسه في وقت معاً. الكلاب. الكلاب.

مجرّد الفرار في اتجاه غرب القنال التفافاً إلى الشمال أو إلى الجنوب وعودة إلى الغرب باستمرار بعيداً عن الطرق المسفلتة التي عرفنا أنّها فخوخ قاتلة مكشوفة أمام غارات الطائرات المنظّمة المدروسة، مع مدقّات الرمل الملتبسة غامضة المعالم. أقدامنا متورّمة شديدة الإيجاع تنبض في خرقها المتربة الممزّقة ونعرج ونواصل المشي بلا هوادة. العطش يعذّبنا وجراكن المياه بطعم البنزين أصبحت فارغة تقريباً ولكنّها ثقيلة الحمل وفيها أملنا الوحيد الذي أصبح روّاغاً جدّاً.

أمواج الرمال البيضاء ترتفع وتنكص تمتلىء ثمّ تهوي وتمتدّ تمتدّ

حتّى المدى من غيرِ حدٍّ من غير شاطئٍ علينا أن نجاهد أن نخوض الموج الجافّ حتّى آخر نَفَس لا نغرق لا تبتلعنا هذه الأمواج.

أي كيمي ِ، هل فقدناك؟ هل فقدتك؟ أنت القادرة على أن تذيبي في رمال جسدك الناعم المنيع كلّ الغاصبين وكلّ الوافدين وكلّ العشّاق، فيك شيءٌ لا يصدَّق، يتجاوز الموت والحبّ معاً، يتجاوز العداء، والعشق والاغتصاب، عنصراً فوقيّاً، لا اسم له، هو مع ذلك كلّ جسد أرضك المشتهاة الحمراء السوداء، الطين والصخر ومائيّة البحر معاً، وحابي القضيب العظيم المخصب يشقّك أبداً يسقيك ويجدّد أمشاجك الممزَّعة الموصولة باستمرار.

مازلت أرى، في النوم، أنّني أحضن جركن الماء الذي ملأته الآن من العرب كأنّه جزء من جسمي بل أغلى من الجسم نفسه. وكيف أنّنا، بعد ثلاث أو أربع أو خمس ليال عبرنا مياه القناة السوداء، أخيراً، جنوب القنطرة، في لنش عسكري، كيف كان شغّالاً وباقياً حتّى؟ مازالت قدماي توجعانني في الحلم وأسقط، على الرمل، من علوٍّ شاهق وعُقاب هائلة معدنيّة الأجنحة تطاردني بأزيزها، هدير القنبلة الألف رطل، وطقطقة الرشّاش «العُوزِي» تلاحقني.

قلت: الحلم مواجهة الحقيقة.

قلت: إنّما يكون الفرار في اليقظة، لأنّ المواجهة عندئذ لا تحتمل. في الحلم فقط تعود الأشياء غضّة بريئة من جديد وقد سلمت من ترسّبات السنين، نقيّة من تلوّث الذِكَر، ورِجْس الحسرة، خالصة من أدران التأمّل اللاحق أو السابق سواء.

كـان الألم هنا بحتـاً لا يخفّفه شيء، صافياً، واللّحـظة حـاضر لا سلَفَ له ولا مستقبل.

سوف أقرأ في «أكتوبر» في ٢٧ فبراير ١٩٨٧ أنّـه قد «سقط زوجي من فوق «السقالة» حيث كان يعمل مبيّض محار ومات في الحال وترك لي ٦ أولاد قُصرً بلا دخل أو معاش. لقد أظلمت الدنيا في عينيّ بعـد أن أغلقت أبـواب العمل في وجهي.. مـاذا أفعل وليس هنـاك مورد رزق يعينني على تربيتهم. فهل أطمع في المساعدة». ماذا يهمّ إن كان اسمهـا فايقـة عبد الـدايم أو صفيّة عبـد الله أو فاطمـة سيّد أحمـد أو شفيقة بطرس؟ ماذا يهمّ إن كانت تسكن بولاق، أو الغوريّة أو شبرا؟

قلت: ألم تمت الرومانتيكيّة بعد؟

قلت: ماتت.

قلت: تلك صورة..

قلت: مـا الحياة التي تعيشهـا، تلك المرأة التي تنشر صـورتها مـع شكواها، برغبتها أم بطلب من المجلّة لأغراض صحفيّة؟ صورة وجه غَـزِل داعٍ للجنس، بدون أن يقصـد حتّى، وفيه أيضـاً خضوع مثـير للشبق. أيّ نوع من الرجال تأخذ بعد موت زوجها، أتـأخذ رجـالاً؟ عـابرين خشنـين، مِعَلِّمين أو أسـطوات، جِدْعـان عِتْرة راجعـين من البـلاد العـربيّـة؟ أخـوةً عـرب يقضـون إجـازتهم الصيفيّـة في مصر المحروسة ويعودون بحكايات مدغِـدغة لحـواسّ متلِّمة؟ غَـلَابه يعني بمقاييس بلادهم وليسـوا من روّاد ماريـوت والميريـديان؟ أم أنّها لقيت الذي يستّها، واستكنّت في بيتها بعد الشكوى، بالصورة، في الجرائد والمجلّات؟

قلت: خفِّفْ من غلواء شطحاتك. دعْ الخَلْق للخالق.

قلت: كيف؟

في صباح يوم ٢ نوفمبر ١٩٨٢، مبكراً، رأيتها، كأنَّها غاضبة، لا تريد أن تحدِّثني. هل نحن في مطعم؟ في أوتوبيس؟ في المسرح؟ أجلس بجانبها. لست غاضباً ـ على غير عادتي ـ بل بالكاد حزين. كأنَّ لها الحق في الغضب منِّي. ومرّة واحدة نحن الآن في شارع كشوارع مصر الفاطميّة، أو تونس، مزدحم بالجوامع الجسيمة الشاهقة وسيَّارات النقل الصغيرة والناس. تنطلق أمامي في الزحمة وتحاذر الماء الوحِل والبِرَك الراكدة فيها سوائل زيتيّة سوداء، بحركتها السريعة الخفيفة وجسمها المليء النشط برشاقة خاصّة، تتباطأ قليلاً فتعود إليّ، ونمشي معاً في وسط الشارع القديم، بين الدكاكين الصغيرة الضيّقة، والأسبلة، والمخازن العتيقة الضخمة البيبان، ونتحدَّث.

كأنَّها هي التي تصفح عنِّي، في النهاية، وكأنَّني كنت واثقاً في دخيلة نفسي من ذلك، وحزيناً له مع ذلك، لست فرحاً به. الحلم ثقيل ثقل الأحلام ولكنّه، حتّى، لا يعي أنَّه حلم. كأنَّه مناجاة في عمق غائر من الروح. هل فقدتها وهي الآن تعرفني؟ حِسيٍّ أنَّنا معاً، في قرار راسخ، حِسٌّ مُنقذ. السعادة كاملة.

في الحلم، في الحلم فقط، مهما كان فاجعاً وفيه مشاكل الأحلام المعتادة التي تعصر القلب، تسقط تلك اللوعة الراجعة إلى الفقدان، ومعرفة الفقدان. تسقط معرفة الفقدان. تسقط ذاكرة الفقدان. لا

يعود ثَمَّ فَقْد. أنت تحيـا معها في داخـل تعقيداتِ مشكلةٍ مـا، نعم، ولكن معها. وليس في وحشة الفقدان.

ليس في السماء تلك السحابة المتَّجهة إلى الموت.

أمَّا في صباح ١٤ فبراير ١٩٨٤ فقد رأيت أنَّها تحدِّث شخصـاً ما، لا تعرفه، وكأنَّك مع ذلك تعرف من هو، وتقول له، بلهجـة غنجة، وغـزلة: «هـوّ لعب عيال. . ولاّ يعني لعب عيـال». ولكنَّهـا هنـاك، معـك أنت، أنت لا تعرف أبـداً ولم تعرف قط أنها بعيـدة ومفقـودة. نعم، أنت تحسّ الغضب الآن، ولكنك تعرف أنَّها تثير غيرتـك، عن عمد ربَّما، وأنَّ ثَم هنا عملية من عمليـات الحبّ المعقّدة، وهـذا كلّه طبيعيّ، ويمكن أن يُحتمـل. لأنَّها معك. الحسّ بـالفقد ليس هنـاك، أصلاً. هذه نعمة وحدها، سعادة بشكل من الأشكال أيضاً.

أنت تنظر إليها وتقول: هذه مرأتي؟ هذه مرآتي؟
ولا أتصالح مع الزمن، أبداً. .
استرجِعْ إذن ما لا يمكن أن يعود، إذا استطعت.
وحتَّى في لحظات الفَنَاء والهوَىٰ تعرف غربتك.
«وجعلت نفسَك على النّأيِ تنطوي».

(٤) موجة ورا موجة

الهوى المُرْدِي، بالحِجَى قد طاش

الحجر الأنترى الأبيض يتخايل في العتمة الداخليّة، نيّئاً، خاماً، غير مطليّ، وله طراوة كأنّه جسد امرأةٍ أحببتها.

كان محكوماً عليّ بالحبس الاحتياطيّ، ٤٨ ساعة، في هذه الغرفة.

كنت أعرف أنَّ وراء ضُلَف النافذة الخشبيّة الزرقاء البالية، عبْر الحجَر العريض، وشَبَكة القضبان الحديديّة الرفيعة القويّة، كانت جمال عساكر الهجّانة، مربوطة في حلقات ضخمة من الحديد مدقوقة في الأرض الحجريّة، تقف أمام مساقي الماء الساكنة، تمدُّ أعناقها الطويلة المقوَّسة، برشاقة، وترشف ماءها من أشفارها المشقوقة المرتخية، والرمال الساكنة داكنة من البلل تحت أحواض المساقي المبنيّة بالطوب الأحمر.

كنت أعرف أن مساكن الهجّانة قريبة منيٍّ، مطليّة بالأصفر الكالح من الرطوبة، ولها سور حجريّ واطئ يفرشون عليه البطاطين الرماديّة الميري الغامقة والمراتب الضيِّقة قليلة المنّة شحيحة القطْن، ولها نوافذ طويلة متتابعة.

رائحة البحر نفّاذة وعطنة قليلاً تهبّ من الخارج المشمس الفسيح وتنفذ إليّ من خصائص الخشب، أحسّها دعوة للغضب.

وكأنّما رشاش الموج الأزرق المزبد في اصطدامه بالصخر العنيد، متكرِّراً بلا هوادة، هو أيضاً فيض التمرُّد في قلبي المضطرب، خبطات الحسّ بالظُلم التي لا تتوقّف.

ارتفاع رذاذ البحر وانهماره في موجاتٍ خفيفة على الرصيف الأسود.

كنت في عتمتي الجوّانيّة مصفّداً فى رُؤاي، وكأنّني أعرف ألوان البحر، ولا تعزّيني، مساحات الأزرق العميق والأخضر الفيروزيّ والبنفسجيّ القاتم ورصاصيّ الرماد المائيّ الصامت السيولة. ظلال السحب البيضاء والشهباء والداكنة الثقيلة، شفّافةٌ وجَهْماء على جِلْد البحر الزجاجيّ، تلوّنات تمرّ على روحي الحبيس، في يوم صاف مشعّ ليس فيه حدّة ولا سطوع، ساقط من كِسَف السماء. إنّما مرارة طعْم الملح، والعجز.

أعرف أنّ لجّ الظلم من غير قرار، يجور عليّ في محبسي دون رحمة.

من وراء قضبان الشبّاك الحديديّة رأيت وجه عسكري الهجّانة، أسود فاحم السواد ولامعاً، وعلى صدغه ندوبٌ أفقيّة متوازنة صغيرة، علامة قبيلته. كان يرفع سوطه القصير، دون صوت، دون كلمة، ويهزّه.

أهو تهديد أم وعد بالإفراج؟ نذير ببدء العذاب أم بشير بانتهاء المحنة؟

كان في وجهه عذوبة لا أجدها إلاّ في جنسه، رقيق وحان، وقاتل.

ارتجف قلبي.

ومع أنَّ الحبَّ يهضب ويمور في الداخل، فلا مخرج.

لا طريق إلى الناس - كلّ الناس - في شقائهم الدائم، وكدّهم، في قساوتهم وشرّهم، في أحلامهم، وأفراحهم صغيرة كانت أو مزلـزلة، في نبالتهم وشموخهم اليوميّ المأخوذ مأخـذ المسلّم به، وفي محـاقرهم وصَغَارهم، سواء. لا طريق.

حواجز صلدة.

أحجـار جسيمة عليهـا آثار طحـالب قديمـة اخضرارهـا قـد جفّ الآن، وتشقّق. تبـين من بين فجـوات رقعـة اللّون الصـدئ الحـائـل مسامّ الحجر البيضاء وطيّاته البضّة.

وعـلى مستوى المـاء المهتزّ قليـلاً بالشـوق بين نُقَـر الصخور، ينبت الطحلب ويونع من بين شروخ الحجر، يتعرّش عـلى نتوءات الصخـر وتكـوّراته وخـرومه الغـائرة المنعّمـة الحفـافي بفعـل المـاء مـا يني يعلو وينخفض، بـلا مهرب، في حـركة حبّ لا يغيض، تصـدّه الحِجار، وتقفله، وتكتم ضربات موجه.

لماذا الدموع سهلة الآن، حارّة وسهلة؟

غيب الشِعر لا نجاة منه.

يحيق بي جسم محبوس، إرادة محبوسة، وحبّ الحياة نفسه محبوس.

يزيد الحبّ وينقص ولكنّه يبقى، في الحبس، مترقرقاً كأنّه راكـد، بلا قاع.

كانت قضبان حادّة من أشعّة الشمس تنفذ من بين ضلف النـافذة

الـواحدة قـديمة الـطراز، وتسقط على الكنبـة المغطّاة بكليم أسيـوطيّ مقلّم سميك الوبرة محروق اللّون.

رأيت الدبّابـات الصغيرة تهـدر على أسفلت الكـورنيش الأسود في أوّل الصبـح، بـين السلسلة ومحـطّة الـرمــل. وكـانت المصفّحـات واللوريّات العسكريّة تحمل الجنود وتسير، خلف الـدبّابـات في صفّ متعاقب، بينما السيّـارات القليلة تمرّ جـانبها، تبـطئ قليلاً عـلى سبيل الفُضول، ثمّ تسرع في طريقها.

تـوقّفت، لحـظة، مـع القـلائـل الـذين صفّقـوا وهتفـوا: «ينصر دينكم، تحيـا مصر، ربّنا معـاكم، ربّنا ع الـظّالم..» وسمعت صدى التصفيق والهتـاف مبدّداً في الهـواء، بينما مـوج البحـر يضرب الحجـر الضخم المكعّب المصبـوب من الأسمـنت والـزلط المسـودّ المخضرّ القاتم.

يـومها، ٢٤ يـوليو، عـرفت من الأهرام أنّ «المحكمـة العسكريّـة العليا المؤلّفة برياسة صاحب العزّة يحيى مسعود بك كانت قد حدّدت يوم أمس موعداً لنظر بعض القضايا الخـاصّة بحـوادث يوم ٢٦ ينـاير المـاضي ومن بينها قضيّـة تدمـير مبنى سينما ديـانا وقـد اتّهم فيهـا عبـد الحميد علي زيدان، وقضيّة تـدمير بـار سيسيل بـدائرة قسم الأزبكيّـة وقـد اتّهم فيها صبحي محمـد شوق وجمـال عبد السيّـد وموسى عثـمان موسى ومحمود عـلي الضبع. وقـد بكّر حضرات المستشـارين والضبّاط العِظام في الحضور إلى المحكمـة ثمّ رُؤي تأجيل نظر هـذه القضايـا إلى جلسة تحدَّد في شهر سبتمبر القادم».

انطفأت الآن في ظلام حَظْر التجوّل شعاليل النار التي توقّدت وتوهّجت تأكل شبرد القديم والكونتننتال ونادي التِرْف وسينمات شارعٍ فؤاد ومحلّات اليهود والخواجات وأهل البلد في القاهرة البعيدة عني.

وشهدت على مسرح محمّد علي لأوّل مرّة يوسف بك وهبي يمثّل رواية من رواياته القديمة، هل كان ليلتها جان فالجان أم الكاردينال ريشيليو أم راسبوتين؟ وعدنا جَرْياً ـ أنا وصديقي أنطوان ـ إلى البيت قبل أن يحلّ ميعاد حظر التجوُّل، سندريلّلات شُبّان كهول القلب، مغلوبين على أمرهم يأوون إلى قوقعة الحيطان المغلقة في راغب باشا أو المنشيّة الصغيرة، قبل الدقّات الاثنتي عشرة القاضية.

هل كنّا مذنبين؟

كنت في طريقي لزيارته، في الدخيلة. كان قد مسّته بقعة درن في الرئة اليسرى، فاستأجر للاستشفاء شقّة صغيرة من غرفة نوم واحدة وصالة ومطبخ وتواليت بلدي فيه ماسورة الدوش أيضاً، وكانت الدخيلة عندئذ جافّة بالهواء الآتي من الصحراء. اعترضني عسكري الهجّانة النوبيّ، في زيّه الأصفر الرشيق المكويّ، حزامه الجلديّ العريض اللامع يحبك خصره والكرباج القصير في يده يبدو لعبة مسحوبة رقيقة القوام ولكن شرّها واضح.

لم أحتجّ بكلمة واحدة، هل كنت مقرّاً بإثْمي؟

أَحَدٌ غير نفسي لم يتّهمني قطّ.

الإدانة حكم بلا سبب معلن.

كنت أعرف تقصيري في محبّتي.

كـان العمّال نـائمين جنب الـطريق، المحـاجـر فـاغـرة وعـريضـة وعميقة، وهم على حافّتها تماماً، في عزّ الظهر.

ممدّدون، مهدّدون، ملتفّون على أنفسهم كأجنّة ضخمة في هلاهيل خيش أو بنطلونات زرقاء باهتة لم تغسل قطّ ـ لم تكن البلوجينز الغالية قـد ظهرت بعـد ـ وبلوفرات صـوف مخرّمـة ملبوسـة عـلى الفـانـلاّت الصعيدي بأكمامها الطويلة الضيّقة ولونها الضارب إلى احمرار خفيف، أو عـلى الصديـري البلدي اللامـع بأزراره الكثـيرة المدوّرة المتـلاصقة تقريباً في خطٍّ طوليّ، وقد سقـطت عن رؤوسهم، في سباتهم، العمم المـرتجلة واللاسـات والطواقي، أو بقيت. كـانوا جـامدين بـلا حراك تحت شمس الشتاء التي أحسّها صافية غير مدفئة.

ورأيت أنَّ آخـر واحـد منهم كـان مقيَّـداً بحبـل مضفـور داكن، ملفوف بإحكام حول دوران حلقة حديديّة غليـظة مثبّتة بـوتد مغـروز على الحافّة الضيّقة بين أسفلت الطريق وهـوّة المحجر المـدّرجة مسنّنـة الحيطان.

قلت لنفسي: هل قيّد نفسه بنفسه؟
حتى لا يقع؟
لم أسأل لماذا.
فهل كنت أعرف؟

قلت: أذهبُ بعد الـ ٤٨ ساعة إلى صديقي المحامي النوبيّ خليـل محمـود الـذي يشتغـل في مكتب اسكنـدر دوس المحـامي، في شـارع سيزوستريس، ومن هناك، نشوف.

في طـريقي إلى المكس لآخـذ الأوتـوبيس كـان الســور الحجـريّ المنخفض مهدَّماً تنفذ من بين أنقـاضه ميـاه أمواج متـلاحقة، حـطامه مخضرّة قليلاً من طحلب ناعم له شعر دقيق.

كان البحر قريباً أنشقُ من مائه رائحـة اليود، والبلل. ثمَّ تهبّ من الناحية الأخرى لفحات من فوح بول جمال الهجّانة، وتتطاير بسرعة. ولم يكن البحــر هادئاً وكأنَّما كنت أراه عميقـاً عميقاً أسـود الموج بـلا قـاع أمواجـه الصغـيرة الـداكنـة تلعق رمـل الشـاطىء الخشن تحفـره وتأكله.

أبراج البترول بشعلتها المتّقدة دائماً متطايـرة الذؤابـات كانت دائبـة الأمل.

قـال صديقي: عن إذنـك لحـظة. أذهب إلى مكتب التلغـراف في المنشيّة هذا التلغراف مستعجل. الجلسة غداً.

وتركني في الغرفة الواسعة عاليـة السقف، مفروشـة ببساط نـاصل وفيهـا أربعة مكـاتب خشبيّة مسـودّة السطوح من استعـمال أجيال من المحامين تحت التمرين والمبتدئـين، وعليها دوسيهـات مشعَّثة الحـوافّ مغـبّرة واضح أنَّها لم تفتـح من سنين، وتليفـون واحد بـدا لي ضخـماً وأسود ومهدَّداً، كما كانت تبدو لي عندئذ كلّ التليفونات.

رمى إليّ بنظرة، كأنّها باستهانة، الولد الذي يضع فتاته أمامـه على الـدرَّاجة، ويسـوق مبدّلاً بحـماسة، وهـو يحتضنها من خلفهـا، وهي بالبنطلون البيج الغامق، قدم على الدوّاسة وقدم مدلّاة بتوازن ثابت،

وردفها الرشيق المحبوك في حضنه. هل رأيت وجهه؟ ألاَ يُذكّرني بوجه أعرفه؟

عقم الحنين. عقم الحنان. كمال العقم نقصان. وفقدان لا يُرَمّ.

قلت: مستحيل.

بإصرار اليأس، تحت وطأة كبح متوتّر، مشدود، محشود بحياة متهدّجة، وأمامي ظلال شاسعة.

سوف أقرأ بعد سنين عديدة في «المصوّر»، يوم ١٩٨٧/٧/١٧: «زرت ابنتي الشابّة المريضة بمستشفى الصدر بالمرج. فوجدتها تعاني من ضيق بالتنفُّس. استنجدت بالطبيب المعالج كي يسعفها بأنبوبة أوكسجين أجابني: «آسف المستشفى ليس فيه أوكسجين.» وبعد دقائق تهدَّجت أنفاس ابنتي وفارقت الحياة. ليس بالمستشفى ثلاّجة في انتظار تسلّم الجثّة لدفنها. نصحني بوّاب المستشفى أن أحضر أكبر عدد ممكن من ألواح الثلج حتًى لا تتعفّن الجثّة. رحت أسعى بين المستشفى والقرى المجاورة، وبشقِّ الأنفس عثرت على بعض ألواح الثلج. وقضيت الليل بجوار جثّة ابنتي أحميها من قطط المستشفى المتوحِّشة. إنّها صورة صادقة ومؤلمة للعلاج في مستشفياتنا الحكوميّة.. حتًى الموت. «أحمد عبد العال ـ الترعة البولاقيّة شبرا».

طِبْق النصّ.

كانت عيناها في ركود مياه ضحْلة، وهادئة جدّاً، رماديّة خضراء في عتمة أشواقي المنطفئة. لمعة سراب دائماً تومض على سطحها.

أحسّ وحشة مرهقة كأنّما أسير في طريق المقابر.

قبر الغسق قد أُغلِق، وساد سكونٌ لا يشوبه سوى خرير نافورة لها صدى من وراء أسوار الصمت المخيّم وأسوار سقوط المساء. كأنّ غلالة نسائيّة شفيفة قد انسدلت والنجوم ثقوب في نسيجها.

طريق القبور مقفِر أسمع فيه ضربات أمواج ترتمي على الرمل، تحْت، أمامي، والأشجار الكثيفة تعريشات أغصانها قِباب علويّة، ولكن قاتمة مُطبِقة.

هل نسيت أحلام الليلة الغائبة؟
عارفاً أنَّ كلَّ ليلة فاتت تمضي بي نحو موعد عقيم.
هل صرعتني غوائل سورتي وحُمَّيًا أشواقي المستميتة..؟
هل صدَرَ الحكم؟
بأن يجتذب البحر خُطاي، دون حِوَل.
حافزٌ مُغْوٍ لا مقاومة لغوايته.

حوريّة متسايلة متماسكة. أوصال سوداء الجسم، هامسة بأوامر حارّة لا رادّ لها. وقعت راضياً في شباك المسحورين أغوص صامتاً في سماء المسوخ المعكوسة، الشاسعة. غدائرها شعرها متشابكة بي، استسلامٌ لسحر آسر.

مازلت مع ذلك أحسّ بتمرُّد دفين مصفَّد في صلب السقوط.
انسيابٌ بلذّة ملتبسة وحادّة، قلِقة ومثيرة.
ندائي قد خرس.
لا بدّ من الذهاب إلى النهاية.
مادمت قد سرت إلى هنا.

آخر أنفاس الغسق مشبعة بأرج المياه المِلحة وصـدى نِثار النـافورة المسوَّرة.

السماء خامدة، سطح مرآة قاتمـة تآكلت صفحتهـا الخلفيّة وبـدت منها نقاط شفّافة دقيقة من خلال الزئبق الصلب.

هبطتُ درجات البازلت المندّى برشّاش البحـر، ورميتُ نفسي على الرمل الذي مـازال ينفث بقيّة حرّ النهار.

هل صَدَر الحكم؟

(٥) شوارع موحشة

تعصف الوحشة ،
ثقيلة مع ذلك ولها وطأة ،
فهل تضمحل أبداً؟

كانت العمارة شاهقة تلمع، فخمة برخامها الأبيض المشرّج بتفرّعات رماديّة تزيد بياضه نصوعاً، سلالم عريضة من الجرانيت الأسوانلي الورديّ الداكن، يوحي بخلودٍ راسخ، لوحات الزجاج في واجهتها تومض وتعكس صورة السحاب الساري في سماء رماديّة مغبَّشة بدخان القاهرة وأنفاس الزحام الملوَّثة بالعوادم والثقل.

تحت الحائط الجانبيّ، المصمت، السامق، المطلّ على حارة ضيِّقة رأيت هذا الشاب، نائماً، جلاّبيّته المتربة التي كانت بيضاء ياقتها معووجة مفتوحة على صديري قديم لامع مخطّط بألوان كثيرة باهتة الآن. الجلاّبيّة المغبّرة مفروشة على كوم من رمل البناء الأصفر خشن الحُبَيْبَات. وقد تعرَّى جانب من ساقيه العجفاويْن الكالحتيْن.

مقطوع، في هذه الغيبة، عن كدّه وضنكه. منتزَع، في هذه اللّحظة التي لا قياس لها ولا زمن فيها، عن ألم الصحو غير المدرك. أرغن - لم يسمعه قطّ - له صدى في ساحة فسيحة تحت قباب قوطيّة، أم تكبير يتموَّج محلّقاً بين أعمدةٍ كورنثيّة منقوشٍ تحت تيجانها آي

الذكر الحكيم، تحمل مقرنصات شحب دهبها، يطفو فوقها تجويف الفلك الأسمى.

مرميٌّ في بيداء النوم، هل النجدة آتية؟
أم لا ضرورة لها، ولا معنى، حتّى؟

على الرصيف، جنب الجرانيت الجميل والرخام الناصع، كان الخروف مربوطاً بحبلٍ ممتدٍّ من حلقة حديديّة في قاعدة خشبيّة مبلولة يرتفع فوقها الزير الفخّار الذي اخضرّت جدرانه من الماء، يرشح ندى الرطوبة عليها ببطء ويسقط في صفيحة جاز منزوعة الغطاء ومسوّاة الحوافّ، مازالت جديدة. بعبعة الخروف ممدود الخطم نحو الماء لا يصل إليه، ثمّ يصمت.

وقدة الظهيرة في يوليو حامية، والحارة الجانبيّة مقفرة، الشمس تسقط عليها، رأسيّة، راسخة الوطأة.

جاءت سيِّدة عجوز، قصيرة وممتلئة، وجهها أبيض مكتوم البياض شديد الشحوب، مغضّن وطّيب الإيحاء. والعرق يلمع تحت طَرْحتها السوداء، وفي يدها شنطة بلاستيك تبدو ثقيلة الوزن.

وقفت، تنهج قليلاً، أمّا أنا على الرصيف الآخر من الحارة، فقد تمهّلت قليلاً، أريد ألّا تحسّ بي.

وضعت الشنطة بحرص على الأرض، على الأرض، على مسافة آمنة من الخروف، وأزاحت غطاء الزير المعمول من فلقتي خشب غليظ كلّ منهما نصف دائرة، موصولتين بعارضة خشبيّة مدقوقة بمسامير كبيرة الرؤوس واضحة الصدأ. دبّت الكوز الصفيح في الزير

وسمعت بقبقة الماء وكأنّني أحسست برودته المنعشة.

تشقّ طريقها، منفيّة وحدها، في القاهرة المتوحّشة.

كان النيل، على شارع أبو الفدا، يبدو أسيراً منخفض الجسم بين الجسور والبنايات والمشاتل وجامع الرحمة والنور وأعمدة الكهرباء وكراسي الكازينوهات البذيئة الشكل والأوتوبيسات الكبيرة والصغيرة عكرة السطوح والنوافذ والسيّارات والتاكسيات التي تمرّ بلامبالاة وأكوام أحجار البازلت المنزوعة من الأرصفة. كائن غريب، وخاضع، النيل، رأس رجل وجسد امرأة بالثديين والفرج المكشوف، غربته قديمة لا يحسّ بها أحد، وانصياعه عميق. لا صلة له بالجنون الميكانيكيّ الكهربائيّ الخرسانيّ الذي يدوّم حواليه، ولا بالمدينة كلّها. منف قد انقضت. ليس هذا اكتشافاً.

سور مستشفى العجوزة للتأهيل طويل وغامض ويحمل شفرة كلّ المستشفيات، واقعة على حافّة المرض والموت، والضرب، باستماتة، بأيدٍ مصمّمة ومتشبّثة، على سطح موج الألم.

الشارع خاوٍ، مازال ترابيّاً مدموكاً بحِجار رماديّة صغيرة وغير مشذّبة الحوافّ، بيوت واطئة من دور أو دورين، وغيطان متناثرة ومحبوسة بين البيوت، عمارة جديدة عالية وحيدة قائمة بلا أنيس بين الجناين وصغار البيوت.

نباح الكلب الضخم في الحديقة الدقيقة الأماميّة في بيت صديقي أحمد قنديل ولوحاته مسطّحات من الأزرق الساجي المنبسط والأخضر الشاسع الخاوي مازال يفوح منها الزيت والتربنتينا، ومازالت

الغيـطان القريبـة تنـوس بنسيم العصـاري تحت أشجـار الكـازورينـا والجمّيز، ثمار الكُـرُنْب المليئة بلحم الخضر مـدوّرة وملمومـة بالكـاد، تنـام على الـتربة السـوداء الغضِرة التي تبـدأ طُـرقـاتُ الأسفلت تشقّ جسدَها، الفلّاح الدهريّ عاكفٌ على الأرض لا يندّ عنه صوت، هو نفسه لم يتغيّرً منذ أيام غيط الترعة المحموديّة عنـدما كـان يطلع لي من الخصّ الـطيني الـواطئ وأنـا أشـتري منـه، لأمّي، الخسّ والجـرجـير والكـرّات وسَلْق القلقـاس والبقـدونس لعيـد الغـطاس في بيت غيط العنب الحيّ في روحي، منذ أيام الغيطان الباقية جافّـة أو نضرة، منذ أيّام الملتزِمين والأغَـوات والسلاطـين والمحتسبين والسنتـوريّين وقسس آمون وايزيس والولاة البيزنطيِّين والأولياء والسادة المشـايخ الصـوفيِّين. هو نفسه مـدكوك الجسم، أصابعه الغليـظة سوداء الأظـافر تُحِسّ أدنى هسيسٍ في رقّة النَبْت يزرعه ويسقيه بماء روحه العنيـد صِنْوى صنعْتي من كَدْحه الذي تشطّ به طـائرات قـبرص وليبيا والسعـودية والعـراق جرياً وراء جِتّة المصاغ لمرأته وبيت الـطوب الأحمر لعيـاله وجـاموستـه والڤيديو والتليفزيون والمزاج، على كَدَشِةْ رأسه طاقيّة مترِبة وهو ينحني باللباس العَبَك والفانلّة القطن الرماديّة كثيفة الوبرة يبدو أنّها لم تغسَل قطّ ولم تُغيّرً قطّ، أين يبيت؟ هل تـطبخ لـه وتنام لـه المرأة التي تقعـد على رأس شارع شـاهين تفـرش الفجل والبصـل الأخضر على قفص جريد مغطّى بخيشة مبلولة دائماً، وبجانبها مقـطف الليمون البنـزهير ورصّة العيش البلدي، تنادي مرّة واحدة: «وَرَاوِرْ يـا فِجْل. .» بينـما الشـارع في صَفَار الشمس يمتـدّ إلى آخـره لا أحـد فيـه لا سـابلة ولا سيّارات ولا صريخ ابن يومين، لمن تنادي؟

بجانبها بنت شعثاء تمصّ إصبعها الإبهام بشراهة وعلى حِجرها رضيع تُلقمه ثديها الطريّ.

أمّا الكهل على الرصيف المقابل فقد وضع أمامه على البازلت الجديد كومتينْ متقابلتينْ ومتساويتينْ تماماً إحداهما من المجلّات القديمة نُصّ عمر، الكواكب والمصوّر والرسالة الجديدة والهدف، والأخرى من كتب السحر والطبّ وعلم الركة، تذكرة داود وتعطير الأنام في تفسير المنام شَمس المعارف ومنبع أصول الحكمة للبوني وتعبير الرؤيا لأبن سيرين الجواهر اللمّاعة في استحضار ملوك الجنّ في الوقت والسّاعة جزء عمّ الرقيقة وقصّة الجَمَل والغزالة ومعجزات النبي ﷺ والأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها في بلاد النصارى والإسراء والمعراج لابن عبّاس وكذلك نزهة الجُلّاس في نوادر أبو نؤاس وموّال شفيقة ومتولّي وأغاني المطرب البلدي أنور العسكري وغزوة السيسبان، بأغلفتها البيضاء الحمراء الهفافة أو ورق الكرتون مرسومة برسوم الفنّانين الأرمن الذين رسموا ألف ليلة وليلة منذ تسعينات القرن الماضي، والرجل أمامها جامد وساكن بلحيته البيضاء الهائشة مصفرّة قليلاً عند فمه من أثر الدخان. وجهه المخدَّد صَهَدَتْه شموسُ السنين الصعبة الطويلة وجلّابيّته الصوف لم يبق من أيّام عزّها إلّا نسيج متماسك بالكاد، جالس متربّعاً على سجّادة ناحلة صغيرة ينتظر وحده بصبر لانهائي، فيما يلوح، مجيء زبائن لم أرَ أحداً منهم قطّ. اشتريت منه مجلّات ومطبوعات بقرش صاغ وتلاته تعريفة، من قرأها؟ من أخرجها من قبر الحروف؟ من أعاد إليها صخب السِيَر والمغازي وموسيقى الحكمة والأحلام العامرة؟

المَنفيٰ هو قانوني، وهو موطني.
صَمْتُ الحروف.
مدفونةً لا بعث لها.

البحر المنبسط بالليل كالحصير بلا موج لا تراه إلّا عيون النجوم القصيّة، وبلاطات رصيف الكورنيش عريضة الصدر بيضاء في العتمة الصحو وسوره الحجريّ المتساوِق البياض. كلّها صامتة.

صَمْتُ الطرق الجبليّة تعرّج وتدور حول شِعاب الصخور التي جمد الثلج على شَعَثِها فبات بلّوريّاً في سقطته المستدقّة الأطراف يُضيء صفوَ العتمة والأشجار مثقلة أغصانها الجرداء المعرّاة بأثقال من ندف الثلج تبدو خفيفة، لا وزن لها، بيضاء على سواد الخشب المغلَق النسيج مسدوداً على حياته الجُوّانيّة المحروزة، التنّين القديم مسجون في هذه الثلوج منذ ألف ألف عام بالقرب من قمّة غير محدّدة من قمم الألب هذه الخادعة القاسية التي تبدو لي واعدة ناعمة قائمة مستقيمة بين الجبل والسحاب سيوف عريضة الصفحات ولكن حادّة السنان مغروسة الطعنة فهل ينفض التنّين عنه أغلاله عند حلول الربيع؟ هل يندفع، مطلق السراح، في الجبل والسفوح يحرق كلّ شيء بناره الأكّالة الهائلة؟ أم سوف يظلّ في جبّه الثلجيّ ألف عام أخرى، وأخرى، وأخرى، حتّى يصرعه الملاك بعد تمام الأيّام؟ وهل يصرعه؟

في مساء اليوم الثاني من آخر شهور عام ١٩٦٤ وصلت إلى زيوريخ.

كانت ندف الثلج المتطايرة تنزل بصمت، وأنوار النيون الملوّنة في

قهوة الأوديون تلمع تحت سماء داكنة يشعّ منها نور أزرق شاحب.

بعد أن مشيت ساعة ونصف الساعة في الشوارع الموحشة، وحدي، دخلت القهوة. كان الدفء عالياً وغلّاباً فخلعت معطف المطر والكوفية الصوفيّة غامقة الزرقة والشابكا الروسيّة الفرو السوداء ناعمة الوبرة، كلّها ثقيلة الآن، ولكن لم أحسّ خفّة. كان الولد الأشقر والبنت الشقراء جالسينْ متعانقينْ على الكنبه الجلد العريضة، يقبّلان أحدهما الآخر قبلة طويلة لا تريد أن تنتهي. على كتفه وعلى كتفها جاكتة جلديّة مكرّرة، توأمان، مبطّنتان بفرو أسود، مفتوحتانْ. تكشف جاكتتها عن بلوفر أزرق سماويّ ناهض بثدييْها المحبوكينْ، شعرها مقصوص خصله القصيرة مختلطة بشعره الطويل المتهدّل على كتفيه العريضتينْ كأنّه من شعرها هي، نسيج ناعم واحد بنفس الشُقْرة الفاتحة، يده ساقطة على كتفها لا تهتزّ، تحت فَرْو الجاكتة المزدوجة،وذراعها تدور حول خصره بلا حركة بلا نأمة جامديْن، تمثالٌ واحد ثنائيّ الرأس ثنائيّ الجسد، ثابتينْ في غيْب التلاصق الذي يحوّلهما إلى حجَر تحت نظرة ميدوزا. مَكَنة الكابوتشينو مصقولة السطح تئزّ بالشهيق المفاجئ والبخار الأبيض ساحقة الوطء. وحدهما في حيّز الكنبة الجلديّة تحت نور الفلورسنت الواجهة الزجاجيّة العريضة طُهْريّة النظافة من الداخل مزركشة الأطراف بالثلج من الخارج كأنّها بطاقة بريديّة مجسّمة تومض وراءهما بمصابيح السيّارات المارّة بسرعة، مغلقة وغامضة، أنوار البيوت المواجِهة من وراء الستائر البيضاء في النوافذ المفتوحة تتخايلُ عن خلايا دفءٍ خاص بها، متعدِّد، ومتكرِّر، ومفصول بعضه عن بعضٍ تمام الانفصال.

وحدهما.

وحدي،
أمَّا الرغبات فكأنَّها ليست منّي.

في هذا الغروب الطويل المثلوج كان من أحبّهم بعيدين عنّي جدًّاً. أكانوا دائماً بعيدين جدّاً؟

المصابيح الكهربائيّة صفراء خرساء تضيء، بنورها المحبوس، مَنْفَىً.

قلت: معي الآن ٧١,٥ فرنكاً ولكن ممكن أغيّر ٥٠ دولاراً كمان. اشتريت البلوفرات وجاكتتينْ صوف واللعب والسوتيانات مقاس ٣٤ ب وسلْك سمّاعة للأذن وبطّاريتها، واشتريت من دكّان أنيق في ماركت جاسي، قطعتيْ لانجيري من نسيج أسود شفّاف ولامع قليلاً موشّاة أطرافه بحاشية دقيقة جدّاً من قطيفة حمراء متلوية ملفلفة، وكانت البيّاعة لها شكل القوّادات ملتمعة العينين بخبث العجائز اللاّتي يعرفن سِكَك المرأة مع الرجال. وعندما رجعتُ إليها بعد ليلة واحدة لأعيدها وآخذ شيئاً آخر، شمّتْها - حيوانٌ أنثويٌّ مدبّب حادّ الأنف - وقالت بحسم: لا يمكن. تفوح منها رائحةُ المرأة، والموت. شمّ. شمّ معي.

لم أكن بحاجةٍ إلى شيء.

لم يكن أسهل من أدعو البنت الشقراء في الأوديون إلى كأس، وخرجنا معاً.

أولجت مفتاحها ودخلنا من باب خشبيّ سميك عريق النسيج

وعادت فأغلقته بإحكام. تَرَكْنا صخب الشارع وغناء السكارى على الرصيف وعربدة موسيقى الحانات التي تتدفّق عند فتح الأبواب، وساد في داخل البيت سكونٌ مبطّن وعميق، وصعدنا سلالم رخاميّة مكسوّة ببساط أحمر ناصل قليلاً وبَرَته نحلت والرخام لامع على جانبيْ البساط.

من النافذة سداسيّة الأضلاع، مزدوجة الزجاج، تحت سقفٍ مخروطيّ به عوارض غليظة من خشب أسود فيه خروم دقيقة عتيقة لامعة النظافة، رأيت أن قامات الناس، على الممرّات السوداء بين أكوام الثلج الصغيرة على الرصيف، والسيّارات المارقة، كلّها، تبدو رماديّة داكنة، تحرّكها، بآليّة، خيوط غير مرئيّة.

وكان سريرها أبيض الملاءات بارد الملمس قليلاً، وموحشاً.
ولم يكن عناقنا إلاّ وحدة كلّ منا.

وكانت عيناها مكتومتينْ، زرقاوينْ، ومكحولتينْ بإطار رفيع وسطحهما زجاجيّ شفّاف، من وراء نظّارتها المسطّحة المدوّرة قديمة الطراز، وتستنجدان.

مررت بالميادين الضيّقة المستديرة المكسوّة بالثلج، والكباري الحديديّة الصغيرة المشغولة بزخارف نباتيّة لامعة، على طرف البحيرة السوداء الساكنة يسبح فيها، على آخر العصاري، بطّ مدملج ملّون الرقبة زيتيّ الريش، والبجع الكبير الأبيض أتلع الأعناق ينساب على الماء الرصاصيّ بكبرياء مفهومة ومبرّرة، النوافير القديمة المنحوتة صامتة جافّة، المباني القوطيّة بأبراجها الحادّة يثقلها الثلج ويوشّيها بدانتيلاً

بيضـاء تتساوق مـع دانتيلاً أحجـارها العتيقـة، والسحـاب الـرمـاديّ الصافي يُثقل السماء ولا ينهمر.

كـانت المحـلاّت الصغـيرة في مـاركت جـاسي تُلقي أنـوارهـا من الداخل على نور النهـار الذي يخفت تـدريجياً بشكـل ملموس مجسمّ، البـارات قد أخـذت تمتلئ بـروّادها وجـوههم محمرّة في سيـماها غبـاوةُ وجفـاوة ما، يُـذيبها قليـلاً الشـربُ والغنـاء، أراهم من الـواجهـات الزجاجيّة السميكة ومعهم نسوانهم بجمالهنّ الصلب الصغـير وملامـح هنـدسيّة كـأنّما تـأتي من «دُورِرْ» مباشـرةً عَبْر القـرون، وعندمـا ينفتح البـاب يرتفـع الغناء وصخب المـرح ولغط البارات، ثمّ يسـدّه الباب عني فجأة.

أنزل السلالم الضيّقة تحت مصابيح الشوارع الخافتة قديمة الـطراز، والفتيات ملفلفات بالمعاطف والكوفيّات والقبّعات والقفّازات، يمشـين أمامي، بسرعة.

وحدهن.

وحدهم.

وحدي.

إرهاصات الوحشة الماثلة قبل أن يأتي زمانها.

وهل للوحشة زمان، أوّل أو أخير؟

كانت هناك لمّة قليلة من الناس يتباطأون قليلاً عند شاطئ البحيرة ثمّ يمـرُّون. ثمّ كلمات قليلة، كأنّمـا بلامبـالاة، حـادّة وخـافتـة معـاً، بالألمانيّـة الخشنة المكتـومة، وجـاءت سيّارة الإسعـاف بصليبها الأحمـر

العريض متساوي الأطراف على صفحتها الجانبيّة وعلى سقفها المنخفض. ولمحت على الرصيف، بين الأحذية الغليظة نظّارةً مدوّرة وسليمة الزجاج، بسلك نحاسيّ رفيع. ونزلوا من الإسعاف بسرعة وكفاءة وصَحْو، رفعوها من الرصيف الثلجيّ، ووضعوها على النقّالة، وعندما كانوا يُدخلونها، بنعومة وسلاسة، من الباب الخلفيّ للسيّارة المستطيلة البيضاء رأيت أنّ عينيها زجاجيّتان مفتوحتان تائهتان في ثباتها الأخير، زرقاوان حتّى الشفافيّة.

هل جاءت النجدة؟

أمّا البجعة السوداء الشامخة، الوحيدة، فقد كانت تنساب على ماء البحيرة، بلا اهتمام بشيء، ولا بأحد.

أمّا الوَحشة فهي مُجافاة الروح لحضور الحبيب، على لوعة الشوق، ونَأيِ المَزار.

الوحشة عُكارة الباطِن الفوّار المكبوت، واتّصال الهواجس.

مِزَقُ الوحشة على ورقٍ قد أصفرّ بمرور السنين، بخطٍّ دقيق قائم، عنيد أمام الدُثُور.

التماثيل الرخاميّة السُود لملائكة زيوريخ، وملائكة الشاطْبِي البِيض، تحلّق معاً جامدة الأجنحة في فضاء الروح.

عندما ذهبت لأفاوض عمّ مِسيحة على الأرض، كان يمدّ ساقه المتورِّمة إلى جانب وَهَجِ الدفء من منقدة فخّار متّقدة بالفحم الصافي باهت الحمرة في نهار الشتاء، كان الهواء يهبّ علينا من البحر برائحة الملح واليود ورائحة أخرى غريبة فيها بلل الأرض وعطنها

الخـاصّ. الهواء يلعب بـألسنةٍ غـير متساويـة من النـار تتلوّى وتختفي وتميـل صاعـدةً من جمرات مـدوّرة طابت واحمـرّت بـين حبّـات فحم سوداء مصمتة. كـان يجلس على كرسيّ ألومنيوم يشبه كـراسي البحر، على باب حجرة مسقوفة سمعت منها زياط أولاد ووشيش وابور الجـاز وشممت رائحة القلقاس الذي يستوي على النّار، وتذكّرت أنّ اليـوم عيد الغطاس، وكـانت بنته الكبـيرة تقعي على الأرض تحتـه وتقرأ لـه «الأهـرام» ولم يكن في الجبّانـة كلّها أحـد في هذا الـبرد، طرق تـرابيّة متقاطعة متهدّمة تصعد قليلاً وتنحدر إلى غير مـدى فيما يبـدو، وأكوام من الأحجار ومدافن قديمة ساقطة الجدران ومتهاوية الأبواب الحديديّة المَعْوُوجة التي لم تُفتح من سنين، وحَرَشات جافّة من الصبّار الشائـك المصفَـرّ مدبّب الأطـراف ومفلطح الورق ومكـوّم على عِـظامه النبـاتيّة الصلبة. وطلب منّي ثلاثة واتفقنا في الآخر على ألف دولار دفعت لـه نصفها نقداً في الموقع ووقّعت على استمارة وقال إنّني سأتسلّمها جاهزة مبطّنة بالأسمنت وأرضيّتها مدهونة بالقـار جاهـزة مجهّزة من كلّه ولهـا غطاء حديديّ وقفلٍ أعطيك مفتاحه وسننقل إليها الرفات في أيّ وقت بحضور أبونا ويصلّي عليها وقال لي أن أقـابل سيّـدنا، ولّمـا استفسرته بنـظرة، قال بنفـاد صبر وبصـوته الجهـير المليء بـالبلغم الذي كـان له حضـور بذيء وسط المـوتى الأنبا ألِكْسَنْـدروس وكيل البـطرخانـة يـا سيِّدنا البيه وقل له إنّها ماتت من أكثر من سنة لأنّه غير مسموح لنا أن ننقل أحداً إلاّ بعد مرور سنة على الأقلّ أنت عارف طبعـاً حتّى تنظف العِـظام وكلّه وقل لـه إنّ هناك جِثّـة أرض خاليـة وجـاهـزة بعـد إذْن سيّـدنا وقـل له إنّـك ستتبرّع للكنيسـة بألف عـلى الأقل أو كـما تريـد،

أصل التُّرْبة ببلاش لكن الأعمال الخيريّة أنت وما يخرج من ذمَّتك، إذا أنْتَ جاهز ادفع له في الخزنة طبعاً وخذ الإيصال. وخرجت مع بنته الكبيرة التي يبدو أنها خبيرة بالإجراءات وأخذنا تاكسي وذهبنا للبطرخانة وانتظرنا طويلاً في ممرٍّ مبلَّط أمام باب الكنيسة المرتفع المقفل تلفحنا هبّات باردة، ولمَّا جاء سيّدنا يخبّ مسرعاً قليلاً في فراجيّته السوداء وعمامته السوداء الخاصّة برتبته لم ينظر إلينا ودخل إليه ثلاثة أربعة كانوا منتظرين. ولمَّا دخلت، وحدي، كانت غرفة مكتبه واسعة أرضها مكسوّة بسجّاد ثمين عريق الشكل، مسدَلة الستائر الكثيفة على النوافذ ومنيرة بنجفة كبيرة وفيها كراسي فوتيّ جلديّة داكنة وعلى مكتبه أباجورة ضخمة سيِّئة الذوق وكان سيّدنا أيضاً نافد الصبر وفاهماً كلّ شيء وقال بجفاء ووضوح دفعت كام لمسيحة فكذبت عليه ـ كما أوصاني مِسيِحة ـ وقلت له لا شيء ولكنّي جاهز الآن للتّبرع إلى آخره إلى آخره فقال عارفاً وكأنّه متواطئٌ: ألفين مش كده؟ ولم ينتظر ردّاً وقال بصوته المليء بالسلطة والحُكْم: هاتِ الطلب يا سيدي ورُح ادفعْ في الخزنة. وعندما عدنا بالطلب موقَّعاً مختوماً خالصاً جاء إليّ مسيحة يعرج على عصاه، وسار معي بجلّابيته الصوف والبالطو الغالي، كَرِشاً بَطِناً لحيماً يتدفّق بالحيويّة كأنّه يستمدّها من الميّتين أنفسهم وتذكّرت أبا العلاء خفِّف الوطء قال وهل ابتسمت في سِرّي؟ وخيّل إليّ أنّي رأيت العظام ناتئة الأطراف فعلاً من بين أنقاض مكوَّمة عالية في الطرقات الموحِشة ونظرت إلى مسيحة فقال دون أن تطرف له عين ربّنا يسهّل ونسوِيّ الحِتَت المكسَّرة كلّه بأمره ونحن نقطع الطرق الترابيّة، مبلولة وموحلة في مواضع من أثر مطرة

الغِطاس أمس وأوّل أمس حتىً وصلنا إلى القبر الذي سوف آوي إليه ـ إذا كنت، حتىً، حسن الحظّ ـ بجانب أمّي وقلت له والرُخام فقال بسيطة اكتب لي ما تريد على ورقة وكلّه بحسابه الرّخَام ينقشه آخر تمام ربّنا بقى يدّي لك طَولة العمر يا سيِدنا البيه.

شوارع عامرة بوجودٍ آخر ثقيل، وخاوية، شوارع نهاية المنفى.

يحيط بها سورٌ مرتفع وتظلّلها أشجار كثّة وحوشيّة نَهْمة الشكل.

وفي طريقي إلى الكافّيه ليترير مررت بالنهر بين الكنائس القديمة وكان بياض الثلج كأنّه ينتظر بلا انتهاء، في الليل، على الكباري المنحوتة بالتماثيل البرونز، وبين اللوحات العريقة. وقلت: هل مرّ جويسْ من هنا في طريقه للقهوة؟ وعندما جلست في الدفء آكل ببطء قطعة جاتوه «ألف ورقة»، قلت: وهل أطلّ من هذه النافذة؟ وقلت: ألمْ تُشْفَ من طقوس الأوهام الصبيانيّة من أيام محرّم بيه إذ كنت تطوف بكعبةٍ رثّة مبنيّةٍ من محبّاتٍ واهية وتقول: «وداعاً.. وداعاً.. لن أنسى أبداً» ها أنت قد نسيت وكم سوف تنسى قبل أن يحلّ النسيان الكامل. وكانت الفتيات في القهوة الأنيقة الدافئة يلبسن أحذية طويلة شرّيرة الشكل وبنطلونات محزّقة تُحدِّد أردافهنَّ المدوّرة الضيّقة وبطونهنَّ المخسوفة، غلاميّات كأنهنّ أولاد فعلاً، وجسومهنَّ غارقة في الفرو الكثيف يدخلن به ثمّ يخلعنه عن قامات مشدودة النهود، وكؤوس الكونياك الواسعة العريضة مع القهوة السوداء ورجالهن غفل لا حضور لهم ووقع اللّهجة الألمانيّة المثقّفة حادّ ولكن له موسيقيّة تعصر قلبي فجأة بلا سبب.

سِكـك الأَلَم، مهما ظننتُ أنّها مؤجَّلة قليـلاً، مُنتظِرة. ولا يقـطعها المرء إلاّ وحيداً.

وتحت الثلج شـوارع البـازلت المتحـدّرة وواجهـات الـدكـاكـين الزجاجيّة المحلاّة بأشجار وزينـات الكريسـاس خضراء داكنة وحمـراء حبيبيّـة كأنَّ دورانها الـدقيق يحمل سـمّاً عذبـاً، وفي الواجهـات أنـوار وتحف ثمينة وكراكيب الهدايا الأنيقة ولوحـات مرسـومة بـالحبر الشيني عـلى أرضيّات بيضـاء في إطارات غـاليـة الخشب وأنـواع من الشمـع السميك الأحمر والملوّن والمنقوش عليه صور العذراء والمسيـح ويوسف النجّـار جنب الساعـات والجواهـر والحليّ والفـراء وكـلّ سلع البـذخ وبضاعة الإغواء بالشراء.

الـترام الفعّال تـاريخيّ الشكل والأزقّـة الضيِّقة الحميمـة والأشجار السوداء والشجيرات داكنة الخضرة في الميادين غريبة وطاردة، الأعرابي المضروب بسيّـارة في طـريق الـدخيلة، كـومـة من الخـرق والعـظام المهيضـة، متهدّلـة وصغيرة، حـزمـة قليلة مخـطّطة صفـراء في الفجـر الشـاحب، مرميّـاً به عـلى الرمـل على حـافّة الأسفلت، منفصـل تمام الانفصال، حائط أصمّ عـالٍ ومصمَت في عمارة سـامقة تعلو البيـوت بعيـداً فوق، نخلة مفـروشة الشعـر الأسـود الخشن جـذعهـا الخشب مجـزوز الـدوائـر جـارح تستنـد إلى إعـلان أخـرس في صخب ألـوان ميكانيكيّة لا تنفجر أبداً، ولا تُفْصِح، أعمدة النور في الظهر بأذرعتها الطويلة النحيلة فوق الشارع ممدودة تستغيث أو تبارِك والناس تتقاطع مسـالكهم تحت الأذرع موقَـدة الأيـدي والسيّـارات صغـيرة أنـانيّـة، وجَـرَس كنيسة العـذراء في الزمـالك أو في محـرَّم بيه يجلجـل لا أكـاد

أسمعه صباح الجمعة في سماء خريفيّة إفريقيّة أو إسكندرانيّة دفئها وسحابها الأبيض الخفيف يَنزلق في عالَمه الشفّاف ما شأنه بنا؟ ويهتزّ الشجر الطويل القائم كأعمدة نباتيّة صاعدة بندائها الدائم تكلّلها تيجان اللوتس الجرانيت. للأشجار، وللأعمدة، قوّةٌ حيوانيّة. وموسيقى شوبيرت تنساب برومانسيتّها التي سئمتها من نافذةٍ مواربة في حائط مسدود المساء تنزل إليّ، ثعابين مسطّحة قديمة منزوعة السمّ.

أمّا الوحشة فهي نزول التوجّس في دخيلتي وجُفُول القلب أمام مُثُولك.

مع ازدحامه بهواك.

(٦) رسائل لن تصل

لا جمال إلاّ في التشوّق
إلى جمالِكِ غير المندثر

(١)

«مازال تأثير خطابِك شاقّاً على نفسي.

تمنّيت لو لم ترسلي إليّ شيئاً. الخطاب قائم بيننا الآن. لا يمكن هدمه. لا يمكن التغاضي عنه، لا يمكن نسيانه. كأنّما كان تأدية واجب، أو ردّاً على مجاملة.

هناك أشياء يَحسن ألاّ تقال.

كأنّما قولها يعطيها حضوراً ـ أو وجوداً ـ لم يكن قائماً من قبل.

كأنّه يضع نهاية ـ أو عقبة لا يمكن عبورها.

قولها وحده يكشف واقعة. لا، بل يخلق حقيقة.

هل كان افتقاد الحرارة أصليّاً؟ أم أنّ الرسائل ـ والكلمات والجمل والفقرات ـ بطبيعتها، لا بدّ أن تكون صامتة، لا يمكن أن تُبين، مهما كانت ـ كما يقولون ـ «نابعة من القلب».

كان في الكلام سخرية غير مستحبّة أيضاً، أو ما يشبهها. هل يمكن أن تحمل الكلمات هذه الشحنة الكامنة من الاستهانة أو

الاستخفاف، وعدم التصديق أيضاً؟ أم أنّ هـذه الشحنة كلّهـا ـ هذه الشُبْهة كلّها ـ من عندي أنا، وأنا الذي أضعهـا في الكلمات المحايـدة التي لا تعني بالضرورة شيئاً؟

قلبي يرتجف ـ كالعادة ـ كلّما أحسست أنّ يوم لقياك يقترب. وكأنّه في حقيقـة الأمـر حكم بـالابتعـاد. ليس في اللّقـاء إلّا فصـل وفـرقـة محدّدة، عينيّة، سقطت عنها خيوط العنكبوت الحريريّـة المنسوجـة من الوهم والأمنية.

أهذا شوق وحنين، أم رهبة؟

هل ألقاك، إذنْ، رسميّة، فاترة، مجامِلة ولبِقة صحيح ولكن طول الـوقت أخرىٰ؟ أم حـارّة مفتوحـة الذراعـين متلهّفة وصـامتة؟ بـأنين الشوق المكتوم أم بمهارة الكلام الحلو الذي لا جِسم فيه؟

الصمت المحمَّل.

وإذ أكتب هذا ـ هل بالفعل سأرسله؟ ـ فهل فيه شبهة ابتزاز لحبٍّ أحسّه آفلاً عندك، هل تميل شمسه المحرقة للغـوص في صفحة بحـر الغروب، كما يقال عادة في مثل هذه الظروف؟

أم أنّني أضفي على وصفه تحدِّياً ليس فيه، على أيّ حال؟

وأريد له بقاء فوق الزمن، فوق الفجر وفوق الغسق؟»

(٢)

«لست محجوباً عنكِ إلّا بك.

في كلّ مرّة أودّعـك هناك رنّـة غريبـة تخفّف من ثقل بـطيء كأنّـه

ينزاح، إلى جانب الحزن الضارب، إلى جانب حسّ الألم الذي سوف يأتي لا محالة، حِسّ توقّعه ومعرفته القبليّة كأنّها وطأة قائمة ورازحة، قادمة. غير وطأة حضورك التي ترتفع في لحظة التوديع، وفي لحظات استشرافها أيضاً، لتترك وراءها راحة الفقد، راحة البُعد، تصوّري!

أمّا وجودك في القلب فهو حصار مطبِق، ما أغرب ذلك! وحرّيّةٌ أيضاً بلا آفاق.

مضى الزمن طويلاً بلا نهاية. لم أكن أشعر أنّني على قيد الحياة - أيّة حياة؟. مشهد الروح هو ساحة الكآبة. معلّقاً بخيطٍ رفيع متوتّر يوشك أن ينقطع في كلّ لحظة.

ثمّ عادت السعادة بعودتك. مع نظرتك التي طالما اشتقت إليها.

لماذا أحببتِك إلى هذا الحدّ؟ إلى لا حدّ؟ لماذا؟

أنا لا أموت.

لأنّه في جسد أرضك المسقيّة والصخريّة سوف تثوِي عظامي.

وبعد ذلك؟ هل تغيّرت؟

أنهض في قبضة حلمٍ غامض لا أتبيّنه، وأسأل: أين هي؟ هل الحبّ قائم أم مندثر؟ هل يخبو ويضمحلّ؟ هذا غير مستغرب بل هو المنتظَر.

هل تذكرين كيف كنت أمرّ من تحت شرفتك، في طريقي إلى البحر، لا لشيء إلّا لكي أخطف لمحة من وجودك؟ ثمّ لا يحدث. فأقول: «غداً. غداً» وفي داخلي فجوة سوداء. ثمّ نظرة فاترة. كأنّها،

على كلّ رقّتها، لطمة. وأقول: «لا. لا. سأنساها. سأكرهها». وفي الترام، وأنا أجلس بجانبك، تنهمر الروح وتتهاوى، مضروبة.

أراك الآن في ردائك الإفريقيّ السابغ بلون القهوة، المزدهر بثمرات حوشيّة، ونحن ننتظر المصعد، والمحيط عميق الزرقة يضرب الجدران.

جسمك الإفريقيّ في كَمْ رداءٍ خصيبِ اللّون؟

قمرك الذَهَب يشعُّ محصوراً بين شوكتيْ القرنيْن الحادَّتيْن. عينك المُخصبة داكنة النظرة مقنّعة بأقنعة الصوّان والجرانيت خلف تعاشيق التشبيك الأرابيسك لا أستطيع احتمال نور بقائك، ولا النشوة».

رسالة أولى:

«أنا اليوم سعيدة جدّاً، أحبّ الحياة والناس وكأنّني أضحك من كلِّ قلبي. والناس تنظر إليّ باستغراب وإعجاب. صديقتي تسأل: «من المحظوظ؟» أقول: «الرجل الذي أحبّ، ويحبّني، وقد عاد إليّ، ورأيت الحبّ في عينيه». قلت لنفسي إنّك لم تنسني لحظة ولم يمرّ بقلبك ذلك الإحساس الذي تصوّرت أنّه انتابك فعلاً، كنت أشعر في الأيّام الماضية أيّ فتور أصابك وأنّك قد جفوت وتنحّيت أو حتّى أنّك تكره فيَّ ذلك الجانب الذي لا ترضى عنه. وكنت أسأل نفسي: لماذا؟ لماذا بعد كلّ هذا الحبّ الذي كنت تغمرني به، لماذا بعد أن أوشكت أن تصبح كلّ شيء في حياتي العاطفيّة؟ ثمّ نفيتك عنّي تماماً، ألغيتك لأنّني لم أكن أتصوّر احتمال الألم، بعد أن جعلتني أتعلّق بك تعلّقي بالحياة والنشوة والتحقّق. بعد أن أسعدتني وأبكيتني وجعلتني

أصرخ بين ذراعيك. طبعاً لي كلّ الحقّ في مساءلتك ولكنّي لا أسألك شيئاً، ولا أطلب منك شيئاً. فقط أعرف أنّك رجلي وأنّني امرأتك، هذا كلّ شيء. وليس هذا أبداً بالشيء القليل. أحبّك. وسوف أظلّ أحبّك مهما كانت تصوّراتك.

لعلّ الأيّام سوف تفرّق بيننا. من يدري. دعنا نكن واقعيين. ولعلّني سوف أعرف رجلاً أو رجالاً غيرك. هل يفزعك مثل هذا الكلام من امرأة شرقيّة؟ لكنّك سوف تظلّ رجلي. أو أنّك كنت رجلي. هذا سوف يظلّ قائماً لا يزول. عندما أكون معك أحسُّ أنّني لست من هذه الأرض، وأنّني لك وحدك وحدك، ألا يكفيك هذا؟».

(٣)

«قطرات دمي، نزْرة، تسقط من على نهديك إلى حضن البحر المضطرب، تنزلق على أعشاب طحلبه الداكنة، الغاضبة، الغَضِرة، ملفوفة الحنايا.

جسدي مبهَم، وجسدك صخرة لدنة وناعمة تكسوها، معي، طحالبُ حُنُوِّي وقواقع شهوتي المفتوحة شرّيرة الشكل نابضة بشوقٍ شرس.

في عمق المياه المترجرجة عيناك فيروزيتّان، نَهْمتان، زهرتان تشتعلان بنارٍ ذهبيّة خضراء صلبة، إليهما يغوص مركبي، سكّين مغروزة وحدها في الرمال البيضاء الشاسعة.

حُبيبات القواقـع الصغيرة، مبلولـة مدوّرة، تلتصق بخـدّ المركب ـ السكّين، بصفحة جسدها الحادّة النازلة إلى الموج المترقرق.

أحشـاؤهـا الصغـيرة الـلامعـة اللزجـة تخــرج من الكِنّ تتلّوى في الشمس.

شوقي إليكِ نصلٌ جارح.

الشباك القديمة ما زالت مرميّة على شقوق خشب المركب السوداء، جائعةً وفاغرة فاها.

المَحارة الفضيّة الساخنة مفتوحة عن رُعْبِهـا، مفتوحـة عن بحرهـا الجَهْم المُلْتـطِم، مفتوحـة عن سُلافـةٍ كأنّها ملحيّـة وسكّريّـة وحرّيفـة لاذعة وعذبة معاً.

الـدُكْنة المتفتّقـة تبضّ، ملءَ فمي، بِنكِتْـار نَكْهِـة عـودِ القـرنفـل الغريق.

لا تغيض، فلن أعطش أبداً.

كم أنهلُ، وأعُبُّ، من ثَبَجِ عُبابـك اللجِيّ. ليس على شفتي إلا ذَرُور المِلح المصوِّح، ويقين العطش».

* * *

رسالة ثانية:

«شعرت اليوم أيضاً بسعادة حقيقيّـة بمجرد أن سمعتُـكَ تطلبني في التليفون. صوتُك القديم، كلّه حنان، الذي أعرفه. لم أكن أنتـظره، كنت وطّنت نفسي على نسيانك، على نفيك. وجدت عـلى الأقلّ أنّـه

من الأفضل لي حقّاً أن أنسى هذا الموضوع كلّه، ألاّ أشغل نفسي به، على الأقلّ مؤقّتاً. هأنذا أصارحك، كما عوّدتك منّي.

ذهبت بعد ذلك إلى الشلالاّت، إلى الربوة المرتفعة التي قلت لي مرّة إنّكم بعد ظهور نتيجة التوجيهيّة، تعاهدتم فيها أن يتّصل حبل صداقتكم، وطبعاً لم يف أحد، قلت لي، ولا واحد، بعهده. وانقطع العهد بكم.

ألهذه الحكاية عندي معنى؟

كانت الخضرة تحتي، والسيّارات القليلة تكاد تكون بلا صوت في ظهر الشتاء، والساعة النباتيّة الضخمة تدور ببطء جدّاً.

قلت لنفسي: لم أعد سعيدة معه ـ معك ـ حتّى لو كتمت عن نفسي ما بنفسي.

قالت لي نفسي: ما دليلك؟

قلت: يوه.. الأدلّة بالكوم. ومع ذلك فكلّ دليل له أكثر من تأويل.

أليس الأمر كذلك دائماً؟

قلت: صمته، وبرودته، وجفوته المدّة الطويلة.

قالت، تطعنني: أنت قلت له إنّك تحبّينه، سوف تحبّينه دائماً. ألم تقولي؟ هذا الرجل قد أطمأنّ واستقرّ إلى حبّك إذن. أكان يفعل ما يفعله الآن، عندما كان عنده شكّ في حبّك؟

قلت: صحيح. نحن جميعاً نحبّ الراجل الرزل الذي يطلب

طلبات لا أوّل لها ولا آخر، يشخط، وينتر، ويتأمّر، ولا يظهر الضعف أو الاحتياج، ويكتسح الواحدة في طريقه، بلامبالاة. صحيح. لكنّي أحببت فيه ـ فيك ـ الرقّةَ أيضاً والحنوَّ، والحرصَ عليّ، حتّى، أكثر ممّا ينبغي.

قالت: والآن تشتكين؟

قلت: أبداً. أمّا أموت. لا أشتكي أبداً.

ولكنّي شعرت بالراحة، أخيراً، بل والسعادة كما قلت لك، عندما طلبتني، وكنت رقيقاً للغاية، ومحبّاً للغاية، كما عهدتك.

لا ينقطع العَهد.

قلت لي إنّك حلمت بلقائي في مركب ينساب على صفحة ببحر هادئ، وأنّك نزلت من المركب مباشرة إلى بيتنا، في شارع الشِعْرَى اليَمَانِيّة، كان باب البيت ـ الذي أعطيتك مفتاحه ـ يفتح مباشرةً على رصيف البحر، في حلمك، والأمواج الصغيرة تصل إلى عتبته.

قلت لي: كأنّ اللّاوعي قد أفرج عنك، أخيراً، وفتح الباب لي.

أصارحك أخيراً: هل كان حلمك شوقاً؟ أم كان ردّاً على صمتي أنا، وفهماً لرسالة يحملها البعد والغربة؟

لن تعرف أبداً كم أُحبّك».

(٤)

«زمني الآخر. حلمي الآخر. جسمي الآخر.

كلّ شيء عندي آخر.

لم يكن قَطّ، ولن يكون أبداً، شيءُ هُنا، والآن.

بل كلّ شيء إمّا منقضٍ ، ولكنّه ـ على دثوره ـ ماثل غير بائـد، أو مسوَّف، مؤجَّل، ولكنّه ـ وإن لم يأتِ بعـد ـ قائمٌ، يضـارِعُني ويشغل حيّزي، الآن، وكأنّه مع ذلك وفي الآن نفسه قد مضىَ وانقضى.

إلاّ لحظة العشق.

هـذه لا زمن فيهـا، لا زمن لهـا، لا انقضـاء ولا مـآب ولا هنـاك مَقْدَمُ آتٍ.

(٥)

«أريد أن أنقل إليكِ ما قرأته في «الأهرام» بالأمس، في اليـوم قبل الأخير من هذا العام ١٩٨٠:

«أنـا بنت فقيرة الحـال توفي والـدي منذ مـدّة طـويلة وتـركني أنـا ووالـدتي العجوز بـدون مورد رزق نعيش منـه. أريد أن أعمـل بـوظيفة فـرّاشة، علماً بـأنّني حاصلة عـلى الشهادة الابتـدائيّة عـام ١٩٦٥. وإذا لم يكن تعييني ممكنـاً أرجـوكم أن تـأخـذوني أنـا ووالدتي نعيش في أي مصحّة حكوميّة، أو حتّى أيّ سجن، نـأكل ونشرب بدلاً من عذابنا في هذه الدنيا»

نصرة كامل حسنين الكيلاني

بحيرة. مركز ايتاي البارود

أوجعتني نصرة كامل الكيلاني.
طبعاً.
فماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ بوجعي، وغضبي؟
أكتبُ رسالةً لن تصل أبداً؟
ولماذا أتصوّر - يعني - أنَّه يجب عليّ أن أفعل شيئاً، على أيّ حال؟
أمازلتُ أظنُّ نفسي أرفع سيف النار البتّار؟ مثل ملاكي؟
في عالمٍ نُفِيتْ عنه الملائكة، من زمن بعيد؟
قد أنطفأت جذوته.
ألم تنطفئ؟

في هذا العَقْد، قال تقرير لمنظمة الأغذية والزراعة إنَّ نحو ٥٠٠ مليون في الدول النامية يعانون من الجوع، ومثلهم في الدول المتقدِّمة يشكون أمراض التخمة والسمنة والإسراف في الإكل. أمَّا الذين سقطوا في المجاعات، مَرْضَى أو مَوْتَى، فهم نحو ٩٩ مليوناً في العقد الثامن فقط. قلت لنفسي وهأنذا أقول لك بلا خجل أو بخجل قليل: كأنَّ في ضخامة الأرقام وحدها ما يحبط العزم ويثلم الحسّ - ١٧٠ مليون طفل إفريقي مهدَّدون بالموت من المجاعة والقحط. ٧٠٪ من أهل إفريقيا تحت مستوى الفقر؟ ما مستوى الفقر عند المنظمات الدوليّة المحترمة - حسنة النيّة بلا شكّ - مثل الفاو؟ كأنَّما هي بالإحصاءات والدراسات والمشروعات تُبرئ ذمّة الناعِمين وافِري النعمة، كأنَّما تكفّر عن حسٍّ بالإثم عرضيّ على كلّ حال سرعان ما ينجاب - ١٧٠ مليون طفل - كأنَّما الأرقام الهائلة توقف دم الوجيعة وتحوِّل الحكاية إلى مجرَّد شهقة استغراب. ولماذا الأرقام بالملايين؟ ولماذا

في «إفريقيا»؟ وهي كلّها تعميمات وتجريدات إحصائيّة، وجغرافيّة، ومصطلحات في التقارير؟ تحت بيتنا رأيته، هذا الصبي الفلّاح الذي ما أوضح أنّه يأتي القاهرة لأوّل مرّة، كان يبتسم ويرى الأشياء وخاصّة النسوان بانبهار، وكان شاحب الوجه أَبْيَضَهُ شحوباً شمعيّاً وعلى جلد وجهه ويديه نقط سوداء دقيقة وعلى شفتيه قشرة قشف، وعيناه جافّتان، يلفّ رقبته بكوفيّة مغزولة في البيت. قلت لنفسي: في مصر، في القاهرة، بعد ثمانية وعشرين عاماً من الثورة، فلّاح عنده الاسقربوط؟ أليس هذا مرضاً تاريخيّاً، ما أسهل زواله، شويّة ڤيتامينات؟ كم مثله لم يأتوا للقاهرة أو لم يعرفوا حتّى؟ كم مثله لا يأكلون العيش الحاف كفاية، في القرى والمدن؟ ليس هذا تجريداً ولا أرقاماً.

١٧٠ مليون طفل في إفريقيا يعدلون طفلاً واحداً في أيّ مكان من الأرض، طفلاً يموت من الجوع، جلده الأسمر أو الأصفر الرقيق ناصل النسيج مشدود على بطنه المنتفخ المكوّر بسرّته البارزة، عيناه غائرتان لامعتان وصامتتان، ساقاه كالعصيّ المثنيّة، يموت وشفتاه متشقّقتان، قشرة نبات يابس، لم يعد ينتظر من العالم شيئاً، كفّ عن نداء أمّه التي جفّت ونضبت وسقطت. طفل واحد، ١٧٠ مليون طفل. من ذا الذي يملك أن يغفر هذا؟ لا غفران.

يا للسذاجة، دائماً يا للسذاجة!

هل تتوقّف الحياة، هل يتوقّف أيّ شيء في أيّ مكان، لأن الجرائم - لأن ١٧٠ مليون جريمة في هذه الحالة - ترتكب كما كان شأنها أن ترتكب دائماً وكما لا شكّ سوف تظلّ ترتكب دائماً؟

أورفيوس يظلّ ينوح.

قلنا ألف مرّة إنّ موسيقى النواح تظلّ مضحكة قليلاً، ولا معنى لها، على أيّ حال.

كأنّما لا بدّ أن يكون ثمّ معنى.

نظلّ نحتمل هذه الجرائم - أو هذه الوقائع - ونعيش معها، ونحبّ أن نحيا، ونعرف أن نمارس عشقنا.

كأنّنا ننزل إلى عالم سفليٍّ سحيق.

كأنّنا نفرّ بجسدينا من رعب الجريمة إلى رعب العشق، وكأنّما يصبح الجسم - جسمي وجسمك معاً - في هذا الرعب، مجرّد موضوع، مجرّد أداة، مجرّد شيء منفيّ بلا حياة، بل دَفْعةٌ آليّة انحسرت عنه - انفصلت عنه - روحٌ مُحْيِية، وأصبح وحده، يحفِّزه ويحرِّكه وينبض فيه مجرّد دفْق العصارات الفيزيقيّة ونكوصها.

ألهذا كنّا ننزل إلى الأرض، على الموكيت الطوبيّ المحروق، كأنّه نار منطفئة، أو نار متّقدة تحت غطاء سميك، والنافورة قد صمتت، والضوء من المشربيّة القديمة على وشك النضوب، ونصنع الحبّ، صناعة كأنّها تكريسٌ للسقوط. كأنّها نزولٌ إلى ما تحت الأرض. وعندما تُطبق اللحظة الأخيرة علينا كأنّما لها وَقْع الإدانة، ارتماءُ الجسم وهمودٌ دون حسٍّ بالخلاص، بل ظمأ من لا رِيّ له إلّا ماءٌ مِلْح زقّوم.

ألم يحدث هذا؟

أعلى هذه النغمة نودّع العام ونستقبل العام الجديد؟

كلّ سنة وأنتِ طيِّبة»

* * *

رسالة ثالثة:

«قضيتُ ليلة لم أنم فيها، أفكِّر فيكَ وأنت تنتظرني طول الليل - كما أعرف - على التليفون - كما وعدتك.

ما حدث، ببساطة، هو أن تليفوني قد تعطلّ.

ما كان يؤرقني قبل كلّ شيء أنّك كنت تطلبني طول الليل، أعرف هذا، وأنَّ تليفوني لا يردّ. فأيَّة هواجس وأيّة أوهام لم تَرِدْ على ذهنك؟ في حوالي الثالثة صباحاً كنت قد وصلتُ إلى قرار بأنّك قد اصطنعت لنفسك من الحجج والتعلّات ما فيه الكفاية حتى تكرهني كراهة الموت، وحتى تعذّب نفسك، بلا مبرِّر، بلا داع. حرام، يا حبيبي، لأن الحياة أقصر من أن نملك حقّ إهدار اللحظات التي لن تجيء مرّة أخرى.

الجوّ في الأقصر مُشمِس وجميل حقَّاً. هذه الاستراحة التي تطلّ من ربوتها العالية على غوامض وأسرار وادي الملوك، ولكنّني لم أروّض نفسي بعد على قبول منفاي الاختياري هنا، حتّى مع الترقية وكلّ المغريات - لا يذهب ذهنك إلى شيء! - أحسّ نفسي بعيدة جدَّاً عن بيتي - بيتنا؟ وعمّن أحبُّهم. وعلى الرغم من كلّ الإثارة والكشوف التي يُنتظر أن يتمخّض عنها موقع الحفريات الجديدة، أحسّ أنّني أترك مَنْ أُحبّهم، وحدهم. والليالي هنا باردة جدّاً، بكلِّ المعاني. إلى حدّ أنني أفكِّر بجدّ في طلب النقل والعودة إلى القاهرة.

الأيّام تطير ولسنا معاً.

الشهور تتلاحق وأنا لست بالقرب ممن أُحِبّ.

السنوات تمضي، في الوحشة.

ما الذي يستحقّ هذا كلّه؟ لم أعد أجد متعة في البقاء هنا. والأيّام - على الرغم من كلّ شيء - تكتسي بمسحةٍ من الرتابة الخاوية. ولا أكاد أتطلّع - حتّى - إلى مجيء يوم جديد. ماذا أفعل بالأيام الجديدة؟ ماذا أفعل بالأيّام الآتية؟

ألهذا كلّه نبرة مقبضة أكثر مما ينبغي؟ آسفة.

أفتقدك بعمق. أفتقد أحاديثنا، وأفتقد - حتّى ما يشبه أن يكون خناقاتنا. توحشني دماثة لمستك، ورقّة حبّك.

أحزنني جدّاً أنّك لن تستطيع المجيء إليّ قريباً، على قرب المسافة.

أمَا مِن طريقةٍ ليرى أحدنا الآخر، في مكانٍ ما، في زمانٍ ما؟ أحبّك أكثر ممّا سوف تعرف أبداً. وهذا أيضاً حرام».

(٦)

«قبّلت رسالتك، بتهيّب، وأنا أغالب دموعي.

فهل في هذا مراهقٌ أبديّ لا يجد مَخْرَجاً أبداً من المِحنة؟

الألم شيء موحش، أليس كذلك؟

قلت الفراق والموت درجتان في نوع واحد من العلاقة. والعلاقة مع ذلك قائمة في كلتا الحالتين. بقُوّة. في الموت أيضاً.

لقاءات عابرة، تليفونات، فقط كل فترة طويلة.

الموت قطْع، ربّما، ولكنَّه ليس حسْماً نهائيّاً، ليس انتهاء. لأنَّ الذكرى والهواجس وأشتات الحضور في الحلم وفي الوهم، كلّها استمرار على نحوٍ آخر ربّما. كأنّني أسمع من أحبُّهم، وأحدِّثهم، وأعتنقهم من جديد، عَبْر حاجز الفرقة. وعبر حاجز الموت. أسير معهم - مازلت - في شوارع اسكندرية، في شوارع باريس وبغداد ولندن وبولاق وبرلين، شوارع سوف أفتح الباب عليها، وعلى موجها، شوارع - عندئذ والآن - ارتفعت عنها الوحشة، عامرة. العالم في وجود من أحبّ - حتّى مع الفراق، حتّى مع الموت - يمكن أن يصبح أنيساً، أكثر من أن يكون محتمَلاً فقط. أمّا في تأكّد غيابهم فقد تأكدّتْ وحشيّتهُ أكثر قليلاً.

ما أشدّ سوقيّة هذه الرسائل كلّها، وابتذالها، وشيوع أمرِها، ويوميّتَها، وتكرارها.

ما أرخص هذه الرومانتيكيّة الفجّة.

عاطفيّة نُصّ كُمّ، لا تجيء حتّى بحقّها».

* * *

رسالة أخيرة:

«لا أدري هل أكرهك، أم فقط أريد أن أنساك؟

لم تكتبْ إليّ، لم تتحدَّث، منذ متى، من سنين؟

لا أريـد أن أراك، لا أريد أن أذكـرك بعد اليـوم. لمـاذا إذن هـذه اللوعة في الكراهية؟ ألأنّي مازلت أفكّر فيك؟

لا بدَّ أن أنساك. وسأستطيع. لا بدَّ أن أعرف كيف ألغيك.

كنت قـد سألتـك: هل يَقْـوَى حبّنا الجميـل عـلى الـزمن؟ وكيف نصونه؟

أين حبّنـا في أحاديثـك التي سمعتها أخيـراً جـافّـةً ورتيبـةً وكـأنّها لامبالية؟ كأنّك فقط تؤدّي واجباً. أليس من الأفضل أن أقـطع صلتي أنا بك، كنت قد طلبتُ منك ووعدتني: «عندمـا يأتي اليـوم دَعْني أنا التي أقطع». لم أكن أريدها من البداية إلاّ صداقة فقط. حتّى هذه لا أجدها عندك. يجب إذن أن أبدأ. وسأفعل. سأعرف كيف أُنهي أنـا ما أسميتَه أنت حبّاً «مُطلقاً، بلا حدّ، ولا شرط». سأفعل. لماذا إذن أقول لك؟

لعلّني أبحث عنك، ولا أجدك.

كنت أعـرف هذا الـرجـل الحنـون الـرقيق المُحبّ. أمّـا أنت فـلا أعرفك. كنت أطمئنّ إليه، وعلى أتمّ استعداد أن أفعل من أجله كلّ شيء، أن أذهب إليـه في أيّ وقت، في أيّ مكان. أمـا أنت فلا أعـرف مصيري معك. أنت لا تحدّثني. ليس لديك اهتمامٌ بي. أمّا هو فقد كان رجلي. وكنت مَرْأته.

يجب أن أنســاك. لن أسألـك لماذا لم تـردّ عليّ، لمـاذا لم تتصل بي، لماذا لا تعرفني. لن أكتب لك: «لماذا لا تأتي؟ لماذا لم تـأتِ؟» تعبت. هذا بالضبط ما كنت من البدايـة أريد أن أتجنّبـه. هذا الألم. أعـرف

طبعاً كيف أردّ لك الكأس مضاعفة، لا تَخَفْ عليّ، أعرف مواطن جرحك، وأعرف مَقَاتِلك. وأستطيع.

هل أستطيع؟ أو حتىً هل أريد؟

لا أهتمّ الآن. لا أحسّ بأقّل ضيق.

عندما سمعت صوتك ـ أنا التي طلبتك ـ لم أحسّ ضربات قلبي. لم أشعر لا بسعادة ولا بشيء.

الذنب ذنبك أنت. لا تَلُمنْي. أنت الذي تدفعني أن أقبل كلّ شيء منك الآن بثباتٍ، بجمود. بل أشعر براحة. لا ندم، لا عتاب، لا لوم.

الحنان قد خانني مرّة أخرى. غدر بي.
لا أريد أن أقول إلى اللقاء، ولا وداعاً، ولا شيء».

(٧)

«أمازلت تخوضين ظلماتك وأنتِ في حال العُرْى؟
عيناك مَجْدٌ ساطع أبداً. ومنارتي أبداً.
أمازلت تذرعين بحر الليل المضطرب على مركب الشهوة، تطلبين النجدة؟

أقول: أكلّ هذا امرأة؟ مادّة العالم، امرأةٌ واحدة، وكثيرة، متّصلة ولا عداد لها، لا تنتهي.

عندما قلت لك: «أكلِّمك فقط لكي أقول لك إنّي أحبّك. إنّي سأظلُّ دائماً أحبّك». هل رددت عليّ ـ أو هممت، أو أوشكت أن

تقــولي ـ بلهجتـك الجــادّة التي تنـطوي عــلى استخفـاف كــامـل: «إ يـ يـ ـ ـ ـه؟ واللهِ؟» ثمَّ استــدركتِ بسرعـة، وقــد تـذكّــرتِ قلّة منـاعتي: «هذا شيء ظـريف جدّاً. . والله!» وكـأنّما أحسستِ بمـدَى الإيـذاء الذي تمّ، دون دِراك، دون محْـو، دون تعويض أبـداً. هـل قلت لي: «قل هذا مرَّة أخرى؟»

هل أنا قلتُ لك: أتحدَّث إليكِ فقط لأقول إنَّني أحبّك.

هل قلتِ أنتِ، بجدّ، وحنوّ، وطلبٍ حقيقيّ هذه المرّة:

ـ قلْ مرّةَ أخرى أيضاً.

ـ أحبّك جدّاً. جدّاً.

وقد أخذ الحديث مجرىً جديداً، في مسَـارات من الروح مـطروقةً من زمان، وبِكْر كلّ مرّة.

أيضاً قُلْ.

أحبّك دائماً. في كلّ لحظة. يجب. . يجب أن تعرفي.

أحياناً أعرف. وأحياناً لا أعرف.

لا. بل اعرفيه. مرّة واحدة وأخيرة.

يعني أعلّقه حَلْقة في وداني. ! على العموم حلقة ظريفة، خالص.

هـا هي ذي ـ شـأنها ـ تنـزل إلى مستـوى آخـر، أرضيّ، يـوميّ، مستوى يمكن احتماله، يمكن التعامل معه.

هل كنتِ، على الأقلّ، أمينةً كعادتك، ولم تقولي:

ـ أنا أيضاً.

أم أنّكِ كنت تخشين ـ بحقّ ـ في قولها تكراراً، ومن ثَمّ ابتذالاً؟

هل كلّ ذلك قد حدث فِعلاً، على هذا النحو؟ أم أنّ نغمة خفيّة لا أدري كنهها كانت طول الوقت تبطّن صوتكِ؟

أم أنّ تلك النغمة - في نهاية الأمر - من مَحض وَهْمي؟

أكان فيها سخرية غير مستحبّة؟

قلتُ: الناس يتغيّرون. أنت تتغيّرين. لماذا، أنا، لا أتغيّر؟

ما أشدَّ سذاجة هذا الكلام.

مع ذلك اليست كتابتي هذه الرسائل تجعل الأشياء واضحة، على غير سجيّتها، على غير حقيقتها المفترضَة أو المتوهَّمة أو الواقعة بالفعل؟ كتابتي هذه الرسائل، ألا تجعل المعاني سلسةً ومحدّدة، فلتكن جليلةً أو صغيرة، ساميةً أو سوقيّة، رقيقةً أو جافِية، لكنّها - كما يحدث دائماً في الكتابة - مصفّاة، مَصُوغة، أياً كان تعثُّر الصياغة أو خيبتها أحياناً؟

أمّا ما حدث فعلاً فاضطرابُ وعْي والتباسٌ وتحيُّر.

الكتابة جَمْجَمة، والحياة غموض واختلاط.

وأيّاً كانت كتابة جسد الحلم، كتابة الحلم الذي هو جسد، ومهما كانت الكتابة مريحة أو حتّى ضروريّة، فالصدق - إن كان ثَمَّت - في هذا الخَلْط المروِّع الجمال، والبَشِع، في هذا الشَوْهِ متّصِل الأشلاءِ بلا انقطاع، الذي هو ما حدث، ما يحدث.

وفي رسائلي إليك أجد أنّني لا أصنع الدائرة بل ألقاها. أجد أن إصرار هذا الاتّساق التلقائيّ والمتدبَّر معاً محتمل، بل هو ممكن. ولعلّه - لا غيره - هو الذي يحدث حقّاً. هو الصدق، لا غيره.

ليس من حقّي أن يأتيني السلام».

(٧) حلقة السمك

«أغرقتُ نفسي في بحر الإشارات»
وفق ما قال سيّدي ابراهيم الخوّاص

رأيت أنّني في موضعٍ شِبْه قطار أعرف من غير وضوح أنّه يقطع المسافة بين القاهرة ومكان ما على البحر، اسكندريّة، بورسعيد أو بحيرة المنزلة؟

والقطار يهدر بصوت الدقّ الرتيب على الفلنكات، مقفلَ النوافذ ليس فيه تكييف ولكن فيه رطوبة ملحيّة ورائحة اليود في هواء البحر.

وكأنّ في القطار فسحة أُزيلت عنها المقاعد، وكأنّ الناس في حفلة ديبلوماسيّة أو استقبال في فندق، في أيديهم كؤوس الشراب متنوّعة الألوان متباينة الصوغ، يتحدّثون بكياسة وظرف وعملٍ واضحٍ لإرضاء محدّثيهم وتأكيد ذاتهم في الوقت نفسه، ينتقلون من حلقة لأخرى بلغط الضحك المهذّب المحسوب واللغات الشتّى التي لا تخلو من شذرات بالعربي.

وكانت هي بينهم، تسيطر ـ دأبَها ـ على حلقتها الصغيرة بلباقتها، وحضورها الطاغي وأنوثتها التي لا خفاء فيها، صوتُها كالعادة مليءٌ بالجنس كأنّما دون قناع ولكنّه دائماً على حافّة ما هو مقبول ورخيّ بل رصين.

لكن كأنّما أحسّ أنّ الرؤيا غير العِيان، فهي، هي، بلا شكّ، ولكنّها أخرى. وجهها أنحف قليلاً وأميل إلى الطول، عيناها ليستا صفراوين خضراوين، بل سوداوان فيهما عمق يومض بما تضمر في دخيلتها التي كأنّها مفتوحة، ولكن لهما رموشهما المألوفة، المقوّسة الكثيفة، الساقط ظلّها على خدّيها الأسيلين المسحوبينْ في انسياب رخيم. وعلى الخدّين - ما أغرب! - أحمر خفيف يؤكّد السمرة الخمريّة الصهباء. وكانت في فستان أحمر يلفّ دوران جسمها البضّ الممتلئ، يحدّده بوضوح ويومئ بغموض إلى لدونة كنوزه الداخليّة، ولم تكن قد خلعت قبّعتها الحمراء الصغيرة الأنيقة التي تستقرّ، برشاقة ومُعَابَثة مستترة، على شعرها الأسود المسبَغ بغزارة وغنىً على كتفيها الشامختين. ناعمةً وغضّة ومحتشدة بإحكام.

وكنت آكل من البوفيه مباشرة، وحدي. وهي، مع أمّها، تنظر إليّ من بعيد، كأنّها لا تعرفني.

الآن فقط أتذكّر أنّني لم أر أمّها قط، أم أنّني لمحتها خطفاً، ذات مرّة؟ لا أتذكّر.

جاء رجل قال لي، عندما سألته، إنّه من لاوس، واسمه نوبال، وتكلّم معي بالعربي الواضح بلكنة آسيوية فيها خُنّة خفيفة، وأعطاني، هكذا في وسط الناس، كيساً شفّافاً من البلاستيك، فيه وِرْك فرخة، محمّر، ويابس ولكن عليه أثر دهن القَلْي البُنّي الداكن، وسلّمني تذكرتين، أو تذكرتيْ قطار وتذكرة رصيف واحدة. لم أسأل إلى أين التذكرتان، ولمن التذكرة الأخرى، كأنّ الأمر متّفق عليه

مسبقاً بيننا، وإن كنت قد قلت في نفسي: من يدري؟ لعلّني مع ذلك لن أسافر، ما دامت هي ليست معي.

حضورها الآن، الآن قويٌّ ونافذ الخطوط وعميق الحَفْر، كما لم يحدث من قبل قطّ. كأنَّ شحنةً في باطني قد أفرجت عنها، وسمحت بكلّ ظهورها، بكلّ تجلّيها.

البحر فجأة، هل وصلنا؟ من وراء كورنيش غريبٍ عنيّ، فقير، مهدَّم السور قليلاً، أحجاره من الطوب والحجر الأبيض الصغير وغير منتظم الحوافّ وبعضه ساقط على الرصيف. أأنا ذاهب إلى أبوقير، أم إلى رشيد أم إلى الدخيلة؟ البيوت الواطئة تُطلّ على الكورنيش الضيّق الخالي، مبلولة من مطر الأمس، متساندة بعضها على بعض لون طلائها الأصفر الباهت رطب ومبقّع، ورأيت بين البيوت جناين الفلّاحين، صغيرة وعالية مزروعة على ربوات من رمل صلب، مهندسة ومنمّقة، ثمّ عالية، وعالية جدّاً على هضبة مسطّحة سامقة، والموج ساجٍ كصفحة مبسوطة زرقاء صافية الزرقة، نحن قبيل اندلاع الفجر، والسماء ممتزجة بالأفق في احمرار بطيء الاشتعال، سوف أصل الآن إلى ذلك الخليج الحُلميّ المعتاد الذي طالما طَرَقْتُه في متاهات الرؤيا، صخوره الخشنة مخرّمة بفجوات رمليّة صغيرة ناعمة، مياهه القليلة مضطربة برغوة سرعان ما تنفثئ، وتعود. تشبه، بشكل ما، صخور بير مسعود، ولكنّها مختلفة، الخليج وحشيٌّ قليلاً.

وكانت تسير أمامي، مع أمّها، تتخيّر مواقع خطوها بحذائها الجلديّ الغالي واطئ الكعب، ساقاها تبدوان برسوخها وسمرتها، عندما ينفرج شقّ العباءة السوداء التي تنسدل عليها. وحفيدتها تمسك

بيدي، وتضحك، على الصخور غير المستوية، وبيننا ودٌّ صافٍ وثقةٌ كاملة، كما يحدث فقط بين الأطفال وجدودهم.

وتمور نفسي بقوّةِ الغضبِ واحتدام الغيرة إذ هي تسند رأسها إلى كتف سامح وتحدِّثه كما يتحدَّث العشّاق ـ لا يمكن أن يكون في ذلك شبهة خطأ. برج الطاحونة القديمة، مئذنة جامع قديم، منارة ضريح قديم سامق فوقنا، أذرع مروحته الهوائيّة متوقِّفة ولكن عريضة مهدّدة. ودهشت في نفسي لمفاجأة هذا الفوران في نفسي، مرّت أكثر من عشرين سنة، عشرين سنة يا أخي. ثمّ إنّ الرجل مات، من زمان، ألم يمت؟ وحيداً في غرفة فندق مغلقة؟ مجهول ومنسيّ، كأنّه ضحيّة لعنة؟ فلِمَ هذا العنف الداخليّ لنقمةٍ ظننتها بادت؟

أبَحْتُ جسمي لنزواتٍ حوشيّة، ومفازع العشق.

تهتُّكِي فيكِ استهلاك من غير عِلّة، واستيفاءٌ من غير حظّ، واستقتالٌ من غير بارقةِ أمل.

لكنّي لم أغمض عينيّ لحظةً واحدة عن هذا الجمال الذي لا يُطاق فيكِ، ومن ثمّ، في العالم.

جمال التجلّي.

صدمة نور نظرتها، وقوّة أسْر البِئر الصغيرة، بمائها الحرّيف الدسم، في وهدة فينوس.

نور مصباح الشارع الكهربائي في نور غَسق الغروب الممتزج بالمساء، تشتعل الأنوار المبهمة بنعومة في وسط أغصان الشجرة التي

يهتزّ ورقها الأثيث، خضرته نصف شفّافة، يعطيها الضوء الممتزج سطوعاً داخليّاً، وحياةً أخرى.

جمال أهداب مقوّسةٍ وطويلة على عينيها الواسعتين النجلاوين، ترمي ظلالاً لا تكاد تُرى على نعومة خدّها المستحيلة.

أليس في هذا أحداث، وأفعال، مزلزِلة؟

كيف يكون جانبٌ منها في أيّة امرأة، في كلّ امرأة؟ الرموش، استدارة الوجه، سَحْبة الوجنة، ومشيةٌ موقّعة راسخة ورشيقة، دوران الجسم في امتلائه وخفّة موسيقاه معاً.

وكيف تستحوذ عليّ هُذاءات حضورها، حتّى في أيام زمان، عندما كنت أذهب إلى سينما رويال في اسكندرية، أضع قرشين خِفية وبشكلٍ معلَن ومتواطئ معاً، أمام عاملة شبّاك التذاكر اليونانيّة التي كانت تعرفني وتعزّني بشكلٍ خاص، كنت حفيّاً بها لا بالنقود فقط بل بالودّ والعِشرة الطويلة عبر زجاج شبّاك التذاكر، وقد كبرتْ الآن وإن ظلّتْ حيويتها وألمعيّة عينيها متوقّدة، تصبغ شعرها بشُقرة ذهبيّة فاتحة، فتختار لي موقعاً حسناً في البلكون ـ وهي التي قالت لمن سبقني في الصفّ إنّه لم يعد هناك أماكن ـ ومن باحة السينما الفسيحة مريحة الجوّ، وصور أساطير الممثّلات والممثّلين مكبّرة جدّاً باسمة بإغواء ومسرّحة الشعر بصِقال لامع، من كلارك جيبل إلى كاترين هيبورن، من ستيوارت جرينجر إلى جريتا جاربو من جورج رافت إلى جنجر روجرز ومن روبرت تايلور إلى لوريتا يونج. في عتمة القاعة، في انبعاثات الأخْيلة الضوئيّة المتواترة المهتّزة، في ازدحام البلكون المعلّق

على ضبابات إشعاع التخييلات وانعكاس الأنوار والظلال المتلاحقة من الشاشة الكبيرة، أحسّ فجأة أنّها أمامي، على بُعد صفّين إلى اليمين، على الممرّ. دوران كتفيها، نزول شعرها على الجسم الراسخ، التفاتة الرأس الخاصّة بها وحدها، استغراق الخدّ الأسيل لا يمكن أن تتكرّر في امرأةٍ أخرى. هي، هي. وقلبي يضرب ضربات الحب والافتقاد. «قلبي يلمح طيفه قبل عيني ما تشوفه، حبيبي وغيني، لو في وِسْط مِيّة، ما يخفي عليَّ، ما يخفي عليَّ»، وماذا أقول؟ ماذا أفعل؟ هل أترك مقعدي الآن، وأنزل إليها، صفّين إلى تحت، على الممرّ؟ هل تتعرّفني؟ وإذا تعرّفتْ هل تحتفي أم تنكرني؟ ماذا أتى بها إلى هنا الآن؟ وقد فقدتُ متابعةَ الفِلْم تماماً، لم أعد أتابع إلاّ ما يدور في شجْوي وشَجني، ما يتقلّب في دمي ويجيش. سمعتُ أنَّ لها ابن عم ـ أو ابن خالة ـ هنا في اسكندريّة، طبيب مشهور كان قد قيل لي إنّها تزوّجته بعد طلاقها، وتلقّيتُ الطعنةَ المُضْمِية دون أن تندّ عني أنّة، فهل أهنئها الآن مثلاً، أم أتجاهل المسألة كلّها؟ ولا أسأل؟ طيّب كيف؟ بعد السينما هل أحدّثها إذن على تليفون ابن عمّها ـ أو ابن خالتها ـ سوف أجد الرقم بالتأكيد في الدليل، في باب الأطبّاء البشريّين، الجّراحين ربّما؟ أم لا أجدها؟ أسأل. أعرف. أعرف. تحرقني فجأة شهوة المعرفة. وعندما تضاء القاعة فجأة، على غير حساب منّي، أفقدها في زحمة النازلين على السلالم الجانبيّة، لا أعود أتلمّس أثرها، أزاحم بكتفي، أراوغ الحشد المتلاصق تقريباً الذي يخرج من بين الصفوف بذوقٍ ومُرَاعاة، لا أثر، لا حِس ولا خَبَر، ضاعت مني، كم مرّة ضاعت، وتضيع، إلى غير نهاية؟ وتعود تُبعث من

جديد، أوزير المؤنّثة، قائمةً من بين الأموات، ملموسةً بعد تمزُّق، دَهْريّة وحيَّة إلى أبد الآباد.

هل كنت قد سمعت جارتها البلدي التحتانيّة، زمانْ، ترخي ملاءتها السوداء من على كتفيها السمراوين المليئتين عن جلاّبيتها الساتان أمّ حمّالات، اللَبَني الفاتْحة، وهي تقول:

ـ ياختي اسم الله عليكِ. أنا عارفة أنتِ بتعملي إيه للرجّالة؟ دا بيموت فيك يا ضنَاي، والودّ ودّه ياكْلك أكْل. دا كلّهم، من كلّ صنفْ ومِلّة، بيحبّوك موت. تقوليش عامْلة لْهم عَمل ياخْتي؟ وإلاّ مخاوِيّة ومسلّطاهم عَ الرجّالة؟ ياختي مش باحسدك الشرّ برّه وبعيد. عيني عليكِ بارده! ويكفينا شرّ العين. خمسة وخميسة دا النهارده الخميس ياخْتي اللهمّ صلّي على النبي.

وهي تمدّ أصابع يديها وتبسطها في وشّ العدو، تِتَفْتِفْ بخفّة عن يمينٍ وعن شمال، وتلمّ الملاية على وسطها بحركة لاإراديّة.

أم أنّ ذلك كله محضُ وَهْمٍ واختلاقُ الخيال، كالعادة المبذولة الآن، حتى لم يعد وَهْماً ولا خيالاً؟

أفي الوهْم ـ الحُلم، وحده، تنتفِي الفُرقة، والموت؟

أحُلْمُ الأبد على شطّيْ حابي الذي قد يغيض وينكتم، ولكنّه لا يموت؟

مَنْ كانت أمّها ـ تلك التي لا أعرفها والتي تسبقها أو تصحبها هذه الأيّام، على تلك الأرض المَخُوفة المألوفة التي أجد نفسي فيها، بحبّ، بأملٍ مضروب؟

جوكاستا المحبوبة المشتهاة المحرّمة؟

أم درعها من عَرَام شهوتي واحتدام غضبي؟

درعها هي من غُلْمتها وصرخة بضعها التي لا تكفّ؟

أو لعلّها العنصر العلويّ الذي ينفي عنها ما كانت تسمّيه «الجانب غير الأخلاقيّ منّي الذي لا ترضى عنه ويستهويك» يعدّل ويصحّح مرآتها المظلمة؟

هل كُنّا معاً في حلقة السمك القديمة، المفتوحة، على الكورنيش، في الأنفوشي؟ نقف معاً، وكأنّنا نريد أن نشتري، أمام قفف ومقاطف ومغالق وطشوت وكراوانات وخشبات مفرودة مبلولة ورائحة زَفَارة السمك قويّة، والخيش البُنّي الداكن يبطّن ويغلّف السمك والجمبري والكابوريا. ألواح الثلج بيضاء من عند الخَفَافي شفّافة زجاجيّة في القلب يقطر الماء منها ببطء على ثمار البحر الحيّة تجالِد الموت في عالم آخر خاصّ، أمام الصيّادين والبيّاعين برجولتهم الفجّة المتفجّرة، واقفين أو جالسين على الأرض بلباسهم الاسكندرانيّ الواسع المتراكب الطيّات، باهت الأطراف ضيّقها من تحت، منتفخاً متضخّم الحِجْر بذكورةٍ معلَنة، ينادون على البيعة بعشرة بُصْ البوري، التعابين حيّة، والجمبري نمرة واحد. الترسة الضخمة مهولة الشكل مقلوبة على ظهرها مرميّة على خَشَبة طاولة من طوايل الأفران تحرّك، ببطءٍ وانخزال، ساقيها السمينتين القصيرتين بمخالبها المبطّطة، هل كانت هي التي اشترت الترسة فيما بعد، في هُذاءٍ آخر وسابق، لعمّتها العاقر فأخصبت وولدت البنين والبنات الأبكار؟

شهدنا معاً سمكة الخطّاف تخرج فجأة من ركام السمك في القفّة

المليئة بالقاروص والبلطي والقراميط والمياس فإذا على ظهرها جناحان عظيمان. تُحلِّق أمام ناظرينا، وهي تصيح صيحات هائلة، بين صرخة النورس وضحكة الضبع، ينخلع لها القلب، وتملأ السماء، ورأيت أنَّ عينيها ياقوتتان مشتعلتان، وأنَّ أحشاءها رقيقة ومكشوفة من وراء شِغافٍ زجاجيٍّ مترقرق وشَفَّاف، وارتفعت حتى كادت تختفي وراء قلعة قايتباي، بعيداً في زرقة الأفق.

هل كُنّا ـ بعد ذلك ـ على شاطئ الأنفوشي، تحت، على الرمل؟ وقد خلا الرمل من شِباك الصيَّادين المفروشة أو المنصوبة على عمدان رفيعة، ومن قواربهم مقوّسة القِيعان المقلوبة على سِيف البحر الضيّق.

تجري بالبيكيني هضيمة البطن، غلاميّة، رفيعة الساقين، صغيرة الثديين، عروساً جديدة في شهر العسل، كأنَّها لم تعرف بعد ـ فيزيقيّاً ـ زوجها الأوَّل أب بنتها، المناضِل الماركسيّ القديم، كهلاً في عنفوان ساديَّته، في زواجٍ ناقشته وأقرَّته كوادر الحزب وقيادته.

ترمِي نفسها في الموج العميق وتعوم كالسمكة بين القوارب المربوطة في البحر بالسلسلة والهِلب الغارق قُرب القاع.

أم هي بَيَّاعة اليانصيب، طفلةً تقريباً، في القهوة البلدي من جُوّاً السيّالة؟

داكنة الجسم صغيرة القدّ قويّة الأسنان، وصاحية جدّاً.

جلاَّبيّتها السوداء مقوّرة من على الصدر تكشف عن قميصها الفسدقيّ خشن القماش يرفع نهدين مخروطيّين صلبين.

عيناها المكحولتان وهي تقترب منّي، تفيضان بغواية مفضوحة ولكن جاذِبة وفعّالة ومكبوحة.

بينما البيوت حول القهوة قديمة، نيّئة السواد، تتدلّى عليها أسلاك صدئة اللون معلّقاً بها مصابيح كهربائيّة لوزيّة الشكل كابية النور تراكم عليها ترابٌ عتيق، كأنّما أكَلَ هواء البحر زَهْوتَها.

المعلّم التخين تحت النصبة يشدّ الشيشة، والصبي الأعرج الأطرش يدبّ بساقه السليمة ويجرّ الأخرى على البلاط الأبيض الأسود المفروش بنشارة الخشب، يرصّ الجِتّة أمّ قرشين على النار.

تأتينا رائحة الياسمين بين هبّات هواء البحر، رقيقة ناعمة في الليل الساخن، تصعد إلينا من جِنينة البيت الواطئ أمامنا، عبر نوبات الضحك والفرحة غير المبرَّرة، رائحة مضاعفة الأرَج، فعّالة العَبَق على نحوٍ جديد، مختلطة بالنكهة الخاصّة النفّاذة التي تملأ القهوة الضيّقة، الآمنة تماماً من كل الواغلين، الجوزة تدور من فمٍ إلى فم في نوع من الترافق النهائي والندّي، بيني وبين المعلّم جافي الجثّة الأكرش الغليظ، بيني وبين الصبي الأبكم الأصمّ الخارق العينين بذكاء يِقظ ودائماً حَذِر، على الأهبة، بيني وبين الشّلّة كلّها: الصيادين في الجِتة، زملاء الجامعة، وأهل الطرب، بلا فروق ولا دروع منصوبة. حلقة واسعة من مطاريد الحظّ.

أَشُدُّ من الجوزة النَفَس العميق، ثمّ أنفخه، فتطلب منّي البتّ بيّاعة الورق نَفَساً، فلا أضنّ عليها ولا أتردّد لحظة، كأنّما يُملي عليّ ذلك «كود» لا يُنْقَض. وكأنّما ـ بعد ـ كنت أحتفي بملمسِ أثرِ شفتيها الطازجتين النديّتين على مبسم الجوزة، وتقول:

ـ إلهي يطوّل عمرك. طَبْ والنبي طِعْمة من بُقّك.

ضحكت بخفوت، كانت الجوزة قد لعبت برأسي قليلاً. فقالت:

ـ والنبي ده ليك ضحْكة تردّ الروُح. إلهي يخلّيك وما تتحرمش من النعمة يا خويا ويبارك لك فيهم يا ربّ. . !

بحركةٍ سريعة وتلميحٍ ليس فيه أدنى بذاءة وإن كانت شبقيّته غير خافية وغير مقصود أن تكون مستترة بل في علنيّتها تكريس وتطهير معاً، نوع من الدعاء وطِيب الأمنية بمتعة تعرف مدى لذاذتها وعمق الرضى بها، وكأنّما تعرف على الفور أنّ هذه البهجة ـ مع الدعاء ـ ليست من نصيبها معي، ليس الآن على الأقلّ.

قلت لنفسي في صفاء النشوة وحِدّتها: مع أنّها ممكنة بالطبع. بل مُتاحة. ليس بيني وبين هذه البنت ذلك الحاجز الذي يقوم دون نسوان كثيرات، إمّا بالتحريم، أو بإطارات المواضعات. ليست هذه هي الشبقيّة الشفّافة من وراء زجاج المؤسّسات الدافئة ومسارح العلاقات المرسومة سَلَفاً، حتى لو كُنَّ الراقصات البلدي أو العوالم اللاتي يحتجبن وراء بدل الرقص المصنوعة كما يحتجبن وراء أسوار مفروضة ومُقنّنة. للفرجة، من وراء الفترينة، فقط، ممنوع اللمس. بل هنا شبقيّة فطريّة ـ طفليّة تقريباً ـ حوشيّة ومتربة بتراب الأرض الخصيب، تراب الزعفران.

أم هي غريقةُ زيوريخ على شطّ البْركة الموحِشة، في يومٍ شتاءٍ مثلوج؟

بعد أن قضيت الليلة معها في غرفتها العلويّة مخروطيّة السقف،

نعمتُ بجسدها في قطعتين من اللانجيري الأسود الشفّاف لامع الشفافيّة، به حَوَاشٍ موشّاة بشريطٍ رفيع من القطيفة الدقيقة مشتعلة الحمرة، وبينهما البطنُ المدوّر الهضيم، أبيض ناصعاً ومصقولاً، وعليه عقد من خرز اللؤلؤ الصناعيّ، طويل ملفوف على البطن عدّة لفّات، الشَامَة السوداء على خدّها الطويل النحيل نقطة محرقة، كانت شفتاها الرقيقتان المخضّبتان، القانيتان، تجوسان فيّ، وتتلمّسانني ببطء، عيناها المكحولتان بثقل مسدّدتان إليّ من وراء نظّارتها المستديرة ذات الإطار المعدنيّ الرفيع، تحفران روحي، لم تخلع السوتيان الأسود تحت القطعة العلويّة، وبدا نهداها ينهضان أمامي في تَحَدٍّ لا يقاوَم، أمّا القطعة السفليّة فتنفرج من الوسط، ويبدو لي الشقّ الناعم، مرتفع الربوة، بين الْتِيام حواشي القطيفة الملفلفة الحمراء، داعياً، بصمت، ولا رادّ له. وكانت صمَوتاً، وبيننا حاجز اللغة، والخَرَس، ولكنّنا نتشارك، لحظة، في أعمق منطقةٍ منّا.

فَوْحَ المرأة، والموت.

لا أني أعود إليها في ليالٍ من الهُلاس، أقذفُ بنفسي فيها، أغرق في بِرْكة جسدها الزجاجيّ.

أجيريني سيِّدتي فإنّي غريق.

نصنع الحبّ في هاديس.

قامت إلى اليمين منّا، ونحن على الأرض، أقدامُ الصوفّا التي أراها الآن لأوّل مرّة عريضةً راسخة، وجانبُها الممتدّ ـ فيما يبدو ـ إلى غير ما نهاية. وإلى اليسار نباتات الظلّ السامقة التي ترتفع ـ فيما

يبدو ـ إلى سماءٍ نائية جدّاً. جسمانا، وشفاهنا، ملتصقة في قبضة عِناق قبلةٍ لا فِكاك منها. وعلى البُعد حيطان غامضة وأبواب تبدو معتمة لا تُفضي إلى شيء، فكأنّنا على سفح حضيض في غوْرٍ سحيق.

أأنا أحمل بين جوانحي، أبداً، جانباً منها، كامناً متربّصاً قائماً باستمرار يتحيّنُ العَلَن عن ذاته؟

ألقاه في أيّة امرأة، في كلّ امرأة، وفي كلّ شيء؟

أمَا وقد دخلتُ بحر السرّ فإنّني غرقتُ فيه غرقاً لا خروج لي منه إلى أبد الآباد.

هَذَا وَقْدُ لهيبٍ ينشأ ويتلظّى ويؤجُّ في داخل الإسْرار.

وأقول: الكلمات الكلمات الكلمات حاجز بيني وبين الأسرار، كثيف قائم بذاته لا عبور منه. أين هي الكلمات الكلمات من صدمِة التماسّ النافذ الحميم، مع الجسد الأنثويّ الواحد المتكرِّر بلا انتهاء، مع الأرض الجسدانيَّة المرويَّة كلّ عام بطمْي المحبّة القديم، أين هي من التفتّح النافذ الحميم مع رائحة البحر وفوْح بلولةِ الهواء في عصاري الاسكندريّة المطلّة على أفقِ ميتافيزيقا دهْريّة؟ أين هي من نفاذ شمسي دون وساطة إلى رواقات القلب المنحوتة في الصخر الضاربة بخفق الشوق؟ أين هي - الكلمات ـ من ضربة المعاناة طعنة الحياة نبضة الحِسّ، دون سِتر، دون نُطق، دون تحديد؟

هل تمزّقتْ حجبُ القول وكُسرتْ أوانيه؟

وليس ثَمّة إلاّ شهود تجلّي موجودات قَولْي ومُنشآت وَجْدِي؟

آنَسُ إلى الجمادات، أسمع نطقها في عالم خفائها، فإذا هي تُفِيض
عليّ أنوارها غير الموصوفة؟

أَبَحْتُ روحي ليقين الجسد.

انصياعٌ لأهواء الحلـم محبَّةً وَوَرعَاً، تُقَىً وهيبة، بل رَوْعاً.

(٨) التهمة

«لم أدرِ من أهوى ولا أعرف اسمه
ولم أدرِ مَنْ هذا الذي ضَمَّه صدري»
ابن عربي

استيقظتُ بعد ظُهر الأحد.

كأنَّما في روحي بقيّة من أغنيةٍ حزينة الصدى، مَنْ يدندن بها تحت هذه القباب المملوكيّة العالية، في صحن جامعٍ فسيح؟

خمول اليقظة من نَوْمة بعد الظُهر، ونعومة الكسل.

كانت غرفتي دافئة ومقفلة عليّ، ولكن هواء البحر الصيفيّ أحسّه يضرب زجاج البلكونة مغلقة الضُلَف، نور العصريّة المتأخرة يتقطّر من خشبها الموصد، يوحي إليّ بشمسٍ بعيدة.

تراوغني إحساسات ملتبسة وتفلت منيٍّ، مشاعر، كخواطري، شَرودٌ وماكرة، لوائحُ مراودة سرعان ما تغافلني وتنْسرب عنيٍّ، أصغِي إليها ولكنيٍّ لا أسمع شيئاً، أحدِّق إليها، بخواءٍ كامل، ساهمَ القلب جيّاشاً بحنينٍ لا موضوع له، ولا بؤرة فيه.

هأنذا إذن أعود فأهيم في غير وادٍ، السأم، العُقم.

لماذا كلّ التأفُّف؟ لماذا نفسي صريعُ الحيرة، والقلق غير المحدّد؟

كآبة، غير حادّة، وانقباضٌ، بلا سبب. ضَجَر يعصر روحي، في دخيلتي عتمة مريبة لا تصل إلى الظلمة الحقّ، ولا تئوب إلى النور.

فهل أقول: « ما من سبيلٍ إذن إلى أن أخفّف عن نفسي لأواءها، مازالت ثقيلة العبء»؟

أم أقول لنفسي، وكأنّما أضحك على نفسي: «وَلَهْ.. وَلَهْ.. دا المُوت حِلْو بشكْل..؟»

أقلّب في ذهني مشروعات آخِر بعد الظهر، دون أن أتحرّك بعد من تحت ملاية السرير التي تغضّنت والتفّت عليّ: أذهب إلى التيرو، في السلسلة، أضرب الحمام. أو سبورتنج ألحق بآخر شوط، يمكن، وأتفرّج على السبَق. أو، ربّما، أسكر في أتينيوس. وحدي؟ لعلّني أجد هناك - في أيّ مكان - أنطوان؟ أو فيليب نخلة؟ أو فتّوح القفّاص؟ أو أذهب أولاً للمنشيّة الصغيرة، ولعلّني آخذ أوديت، ويمكن آرليت أيضاً، إلى حفلة الساعة ٦ في سينما فؤاد. فيها إيه؟ فيلم اسمه ماري شابيدلين، سمعت أنّه كويّس.

قلت: أزور قريبتي في بيتهم جنب زنقة الستّات؟

هل تتصوّر أنّني أحبُّها؟ هذه المرأة البيضاء جدّاً، مكبوسة اللحم، مليئة الصدر، رفيعة الساقين، تحبّ أن تلبس فساتينها الساتان، بلا أكمام، مكشوفة عن ذراعين كالأفخاذ، حتّة بتلّو معلّقة في دكان الجزّار. لكنّها والله العظيم مسلّية، عندما تنظر إليّ من تحت لتحت، وتسبّل عينيها الضيّقتين تسبيلة الوَلَه والهيام. يا شيخ حرام عليك، اتّقِ الله يا راجل في قلوب العذارى، وأفخاذهنّ.

لا ، أرُوح قهـوة كريستـال أحسنْ، يمكن ألاقي عبـد القـادر نصر الله، ألعب معاه طاولة.

أو ماذا أفعل، إلى أين مآلي في آخر هذا النهار الذي لا ينجاب؟

كأنَّما حِسيّ بذنبٍ ما هـو الذي يحفـزني إلى الحركـة، في أيّ اتّجاه، ويُقعـدني عن الحركـة إلى أيّ اتجاه، في نفس الآن. ومـا أعرف كيف يُحَطُّ الذنبُ عني.

وكأنَّما انقطعت منّي من قلّة الصبر ووهن الحيلة وعدم القرار ونأي الاستئناس.

وهأنذا، مـع شيخي أبي العلاء، أدنـدن بشجْوِي وَفقْ مـا يقول: «أُودِّع يـومي عالِمـاً أنَّ مثله إذا مرّ عـلى مثلي فليس يعـود، وأنَّ حياتي للمنايا سحابة، وأنَّ حياتي للمنايا تجود» أو شيئاً من هذا القبيل.

كـانت أوديتْ إلى جانبي، عـلى اليمين، أمَّـا آرليت فكانت تجلس عــلى يمينهـا، عن بُعــد، في كهف السينـما الهــادئ في شـارع فؤاد، المصـابيح الصغـيرة الخافتـة، على جـدران القـاعـة المصمتـة خفيضـة الزينة، تشعّ، كريَّاتٍ مكتومـةً من الضوء الأصفـر الباهت، لا تمنعني من أن آخذ يدهـا وأضعها بـين يديّ عـلى حِجْري. زحـزحتُ يدهـا برفق، قليلاً قليـلاً، حتّى وصلت بها إلى تـوتّري المشـدود. مسَّتْهُ أوَّلاً بحرص، ثمَّ استقرَّت بجانبه بهدوء، ثمّ قبضت عليه بلهفة تشتطّ بها شيئاً شيئاً حتى ألجـأتْني إلى أن أبعدهـا، هَوْنـاً ما، بـأيسر حركـةٍ ما، أخفّف وطأتها قليـلاً لكي يؤوب الاشتعال المتّقـد، الذي يُشفي عـلى الانفجار، إلى توهُّجٍ هادئ لا خطر في حدّتـه. أمّا آرليتْ فقـد كنت

ألمح في العتمة الشفيفة شعرها الطويل الناعم يكاد يخفي جانب وجهها الأبيض المستغرق في خيالات الضوء والظلّ المتعاقبة.

عندما خرجنا حوّدنا من وراء النبي دانيال، ثمّ العطّارين. وراء أناقة البيوت والمحلّات المضيئة في الشوارع الصيفيّة التي كان المرور فيها خفيفاً، متناوباً براحة، كانت الحواري الصغيرة بيوتها واطئة وقديمة ولكن تبدو على جدرانها قوّة وشِدّة أسْر، باقية من سنوات طوال، وتحتها، مازالت مهذّبة وصامتة ورقيقة الحواشي، دكاكين مجلّدي الكتب، والعجلاتيّة، والسمكريّة، والفول والفلافل، والبقّالين، مازالت فيها رائحة العمل الجادّ والخدمة المدنيّة وجدعنة الفقر والسَتْر والسهر إذا تطلّبت شروطُ المهنة، دون خداع ودون شطارة الغشّاشين، مازالت فيها كبرياء الفخر بالصنعة والخبرة وشطارة التجارة البلدي وشرف الحرفيّين.

في فناء مفتوح ومكشوف دون سور، يضيء أرضَه المفروشة برمل مدكوك مصباحُ البلديّة المتوّهج بأسلاك النور المشتعل، كان العمّال يتعشّون، ورائحة البحر تهبّ علينا فجأة من تحت شجرة عتيقة، يسقط نور الغاز على جانب من جذعها الضخم أسود الخشب، ويترك نصفها الآخر مظلماً حالك الجسد، كأنّها منحوتة، فروعها الغليظة التحتانيّة مبتورة ناتِئٌ رسيسهُا من الجسم العتيق، أمّا على أغصانها العلويّة الرفيعة المهتزّة، جنبَ النور الذي يتخلّلها، فأكاليلُ بعيدةٌ من الورق الغضّ فاتح الخضرة.

كانوا فارشين «الأهرام» ـ أيامها لم يكن الحبر ينضح من على الورق ـ وعليها أكوام العيش البلدي العريض الساخن، رائحته تفتح

النِفْس، وعلى الأرض أطباق صفيح واسعة غير عميقة يملؤها حتى الحافّة الفول المدمّس المحمَّر بالصلصة والكمّون غارقاً في الزيت الحارّ، أعواد الفجل ذات الرؤوس الجسيمة المشعرة والأوراق الداكنة العريضة، يأكلون بشهيّة الصُحْبة الطيّبة. عزموا علينا، دون تردّد، بأصوات متراوحة بين الجدّ والدعابة، بين كَرَم النفس وكرم الدعوة: تفضّلوا. . ! تفضّلوا. . ! طَبْ والنّبي، وحياة المُرسي أبو العباس، لتتفضّلوا يا فندي أنت والمّتمَزيللاّت، أهِي لُقْمة على ما قُسم. إحنا بنعزموكو بجدّ مش عزومة مراكبيّة يا فندي، والنّبي دا أكْلنا طِعِم يا طِعْمين. . ! ورددتُ نصف ضاحكٍ نصف جادّ: متشكّر ياسْطَوات. مَطْرح ما يِسْري يِمْري ياخْوَانَّا، بألف هَنَا وشِفَا. وخرجنا إلى شارع الخديوي وأخذنا الترام المجلجل المصلصل المهتزّ، كأنّنا في نزهة، إلى المنشيّة الصُغَيِّرة.

كانت خيام الجيش الصغيرة منصوبة في ميدان سعد زغلول، في الجنينة، وتحت التمثال مباشرة. وكان العساكر بخوذاتهم المدوّرة المسطّحة الحوافّ، والشورتات الكاكي النازلة إلى الركبة باتّساع، والألاشين خامدة الصفرة تلفّ الساقين، تقف صفّاً واحداً قصيراً، بطارية المدفع غير بعيدة، فوّهته مصوّبة إلى البحر، اللوري الفورد انجليزي الصنع محمّل بشحْنة من العساكر واضح عليهم الإرهاق، والملل، الضابط الشابّ يجلس على كرسي قشّ في الجنينة ينظر إلينا من غير اهتمام.

نشرت «البصير» في ٢٤ يوليو نفسه:

«اشتعلت النار في سيِّدة من سكّان زنقة الستّات، فأصيبت بحروق شديدة نقلت

بسببها إلى المستشفى الأميري. تولّى الأستاذ اسماعيل فهمي فرج وكيل النيابة التحقيق فاتّهمت هذه السيِّدة إحدى جاراتها وفتاتيها الشابّتينْ أ. . وأ. . بالاشتراك مع أحد أقاربها وهو موظّف جامعي بإضرام النار فيها ولكنّ التحقيق رجّح أن المجني عليها كانت على علاقة مع قريبها المتّهم ورأته يتردّد على هذه الجارة ويخرج مع الفتاتين عدّة مرّات للذهاب إلى دور السينما الراقية فظنّت أنّه يريد الزواج من إحدى الفتاتين فأقدمت على إشعال النار في نفسها غيرة منها على قريبها وانتقاماً من الفتاتين وأمّهما. ومازال التحقيق جارياً».

سطا اللصوص على شركة ماكنات سنجر في شربين وسرقوا جميع محتويات المحل المذكور الذي يقع أمام دار البوليس، في اليوم نفسه، كان السجّاد العجمي يباع في محلّات نحمان ابتداء من ٥ جنيهات، والصحن الصيني بالورد مسلطح وغويط للسفرة بمحلّات الغندور بـ ١١ قرشاً، و٧٥ قرشاً للبيجاما الصيفي مزيّنة بالكردون و٢٨ قرشاً مايوه صوف للبحر، و٣٠ قرشاً قميص تريكولين بكمّ طويل، وكانت السهرة ليلتها الكوميديا الاجتماعيّة «سكّة السلامة» إخراج ابراهيم لاما بسينما جوزي بمصر، وفي سينما مترو باسكندرية لم أذهب لأرى والتريبدچن وآن هاردنج يمثّلان فيلم «وراء القانون».

وإذ يحطّ الليل تركبني الهواجس المعتادة. عندئذٍ أنصت في سكون الشارع إلى أصوات احتكاك عجلات السيّارات بالأسفلت، هل تمضي في طريقها؟ هل تقف أمام الباب؟ أقول: «ها هي ذي العربة الكبيرة قد جاءت لي»، عواء الفرملة المكبوح، يخيّل إليّ، أتوقّع وقع الأحذية الغليظة تدمّر السلّم، تتأخّر، لا تأتي. لا شيء.

كانت أنفاسي قد تسارعت، أدرك ذلك الآن فقط، وكانت

توجّساتي خانقة ورازحة، أحسُّ بالعجز التام، بالشلل في روحي، وانقضاءِ عزمي، وما يشبه التسليم أمام قضاءٍ مرسوم محتوم.

كنت قد أعددت بيجاما، وقميصين نظيفين، وغيارين، وعدّة الحلاقة كلّها مع مرآة صغيرة وصابونة لوكس أيضاً، والشبشب، ومعجون الأسنان والفرشاة، وأضفت كتاب شعر انجليزي، فوق البيعة، احتياطي، لن يعترضوا على الشعر الانجليزي، أظنّ. رتّبتها في حقيبة يد صغيرة مفتوحة وجاهزة. إذا جاءوا، عندما يجيئون، أكون على استعداد، أقلّه..!

قلت: ألم تمض أيّام النشاط الشوري السرّي، وتوقّع الحبس والاعتقال، ألم تمض، من زمان؟

قلت: من يعرف؟ الملفّات القديمة موجودة، إذا اشتغلوا عليها.

قلت: حكاية قريبتي؟ من كان يتصوّر؟ تحرق نفسها؟

قلت: ولكن حتّى إن كان هذا، فهم لا يأتون، في هذا النوع من الحكايات، بعد أنصاف الليالي. يطلبونك بورقة رسميّة، وميعاد محدّد، في وضح النهار.

قلت: من يعرف، من يعرف ماذا يمكن أن يحدث معهم؟

وفجأة أسمع الأقدام. تصعد درجات السلّم، ببطء وقوّة. ليست كثيرة. كان ترقّب صوت السيّارة قد فاتني. أصيخ السمع وقلبي قد جمد، ليس هناك أدنى خوف الآن، بل انتظار فقط.

تستمرّ الأقدام صاعدة. تتجاوز بابي، وتخفت رويداً. أقول: من يأتي بعد الساعة الثانية صباحاً؟ أقول: طبعاً، جاري، جيراني،

فوق، راجعين من سهرة، أو من عمل متأخّر، أو من مشوار. ما الغريب في هذا؟

أقول: لماذا لا يذهبون إلى الحدّ النهائي في العنف؟ لماذا لا يطبقون على الضحيّة إطباقاً؟ لماذا لا نجدهم كالآلة المحكمة في البطش؟ عادة؟ أهذا نحن، بشكل خاص؟ عندنا يذهبون إلى حدٍّ معيّن، ثمّ نجدهم يتوقّفون.

أم أنّهم بالفعل لا يتوقّفون؟ في الأوردي، في أبو زعبل، في المحاريق والواحات، ألم يحدث؟

قلت: استثناء، ربّما، خروج على القاعدة؟

القاعدة أن تراثاً خلقيّاً في الطفولة يحول دونهم والذهاب إلى الآخِر.

أم أنّه تعاطف أخويّ غير متوقّع، خجِل وغير معتَرف به، في أعماق النفوس المضطربة بحميّا الأوامر؟

قلت: أعرف أنّ العجلة عندما تدور لها قانون فِعْلها الخاصّ، ما إن تتحرّك التروس حتى تمضي إلى غايتها، بقوّةِ دورانٍ خاصّةٍ بها غير عاقلة.

قلت: ولكن في منتصف الطريق، هناك، عندنا نحن، شيء ما يكسر هذه الآلية المطلقة. عسكري عجوز، مقابل قرشين كويّسين، وكلمتين حلوين، على الأخصّ، هو نفسه الذي كان يضرب بالخرزانة بكلّ قوّة، هو الذي يوصّل رسالة لامرأتك - «للجماعة» قلت له - أو يعمل لك تليفون، ويقول لك الرّد.

صحيح، شيء ريفيّ عندنا، مازال.

تسلسل مراكز السلطة والسطوة قد ينزل بك، بل هو بالفعل ينزل بك - مادمت قد دخلت في دورة التروس - حتّى آخر السلّم، حتّى هذا العسكري، أو حتّى أشرس الوحوش التي تضرب وتضرب دون عقل، أحياناً. لكنّها تقف فجأة، يحفّزها وازع غير مفهوم، على الأغلب.

قلت: من يعرف؟ قد أكون الآن غير مقتنع بشيء، بأيّة عقيدة، بأيّ حسم. ربّنا يستر..

وعدت أسمع عجلات السيّارات في الشارع وأستنتج نوعها، وطبيعتها، ومهمّتها، سرعتها، وإيقاعها، ضِخَمها أو صغرها، حتّى سقطت في النوم.

عندما أجد نفسي قد صحوت، أتنفّس بعمق، هو ذا يوم آخر، كأنّما، يعني، في نور النهار لن يحدث شيء.

وأقول: هل هناك حقّاً بين المعتدي والضحيّة - في كل صور العنف - علاقة تواطؤ؟ كلّ صور العنف: بالكلام، بالضرب، بالتعذيب الجسدانيّ، أو الروحيّ، بالفعل الجنسيّ، أو حتّى بالتآمر؟ كأنّها علاقة زمالة، بين الوحش والفريسة، تورّط مشترك، كأنّ فيها نوعاً من ممارسة العشق، مقلوباً على وجهه، ربّما، ولكنّه هناك هناك.

أقادرة أنت المُنْتَهكة، برضاك أو برغمك، على أن تجعلي غاصبيك، طغاةً، قَتَلة، هم أنفسهم، عاشقيكِ؟

بشيءٍ ما في روحك - أو في أرضك - أنتِ فوق الظُّلم، وفوق

الشهوة، وفوق الموت. بل فوق معنى الحبّ وجوهر العدالة.

ما عنصرك الخالد الأبيد الذي لا جسد له، وهو مع ذلك جسدك الأسمر الأحمر الرائق، طينك اللّدن، رملك الخشن، ماؤك، وبقايا غاصبيك عُشّاقك؟

أنتِ ـ بلا حِوَل ـ مستعصية، نحبّك، كما أنتِ، على احتضانك حابيك المتدفّق أبداً بالمِنِيّ المخصِب المهدَر معاً، مهما رُوِّض وانحبس، يلمّ شعثك، ويُحييك من جديد، من جديد.

كنت أمرُّ الآن من شبه أقبية محفورة في صخور الدخيلة الهشّة، تحت الأرض بقليل. الضوء يتقطّر إليها من فتحات واسعة ولكن بعيدة، وأحسّ رائحة الهواء البارد، وهبّاته، كأنّه آت من أجهزة تكييف هائلة غير مرئيّة، وصامتة تماماً.

أنزل على الصخر الخشن بسطوحه مختلفة المستويات، أتحذّر، وأرتفع قليلاً، وأكاد أنزلق لولا أن تتشبّث قدماي ـ من داخل الجزمة ـ بالصخور المشقّقة المبتورة.

كنت أخطو إلى جانب، أتفادى جثث البهائم المذبوحة، أتبينَّ منها الجمال الضخمة والمعيز الرقيقة والعجول، مسلوخة وبيضاء، أحاول أن أتذكّر بمن تذكّرني، ولا أصل، وعليها أختام مدوّرة ومسدّسة الضلوع، حمراء ناضجة على شغاف الشَغَت المبيّض اللامع قليلاً.

وأنا أنزل إلى تحت، أكثر وأكثر، أحسّ أنّني ألجأ إلى أمان مؤقّت.

وكأنَّ الأعرابيّات اللاتي تركتهنّ على مدخل هذا القبو ـ الكهف ـ البدروم الطبيعي المنحوت في الحجر الرماديّ، مازلن واقفات

ينتظرني. الأحزمة الحمراء العريضة تلفّ على البطون، فوق الجلاليب السوداء مشغولة بعناية وحبّ ومحلّاة بقطع ذهبيّة كثيرة تصلصل وتومض على الصدور الناهدة التي أحسّها قويّة وصلبة، الحلقات التي تخزم أنوفهنّ المستقيمة مشرشرة الحواف، الشفاه السمراء موشومة بخطّ أزرق داكن في الوسط تماماً. قلت: ما طعم القبلة منهنّ؟ قلت: لن أعرف قطّ. مع أنّي أعرف منذ الآن مذاقها ونكهتها.

كانت الجثّة مطروحة أمامي، مغطّاة الآن.

أذكر أنّي رأيت الوجه الأبيض الممتلئ المحترق، والعينين اللتين تنظران إليّ بعمى، دون كلمة، تحمل اتّهاماً لا يردّ. والجلْد الذي سقط عن ظهرها العاري في مِزَقٍ طوليّة رقيقة وميّتة وسوداء، تكشف عن احمرارٍ ورديّ نيّء وبه خيوط متقطّرة بيضاء من الصديد.

أهذا فِعلي أنا؟ أسأل.

هي الآن مغطّاة.

وأنا الآن جامد القلب تماماً، لا أحسّ شيئاً.

الملازم الأوّل بنجمته الذهبيّة على الكتف وأناقة سوداء في ملبسه، يكتب المحضر دون مبالاة حقيقيّة، روتين الأسئلة الجاهزة والأجوبة الجاهزة، تسديد الخانات، وإقفال المحضر في ساعته وتاريخه، هل لديك أقوال أخرى، وقد خلص من الأمر كلّه.

هل خلصت؟

هل هناك أبداً خلاص؟

كان الولد، وحده الآن، يأكل من الفلافل المبسوطة حبّاتها مـدوّرة بنّية فاتحة على ورقـة جورنـال، ورغيف العيش مفقّع يـابس القشرة، يكسر منه لقمة محموشة بالنار وراء لقمـة، تحت الشجرة الغليـظة. لم أر إلّا الآن هذه الفسائل الدقيقـة الخضراء الرفيعـة تنبت، قريبـةً من الأرض جـدّاً، من تحت نتوءٍ من بـزّ خشنٍ غليظ مبتور. أتَعِـد هـذه الانبثاقاتُ الغضّـة بحياةٍ مهـدَّدَة، أم سوف تـدوسها الأقـدام سراعاً؟ هبّات ريح البحر، رائحة اليود، بينما السيّارات تمرق جنب الحـوش، وراء العطّارين، وعربات الحنطور تجلجل بأجراسها رفيعة الإيقاع.

إنْ كان على الحبّ القديم.

فمازال عفيّاً، وعصيّاً على الشبع.

قلت: لا فائدة..

قلت: أعود إذن إلى الدخيلة. أمازالت جمـال الهجّـانة واقفـة تنزل بأعناقها الطويلة المتسايلة ترتـوي من الماء المتجـدِّد في أحواض الحجـر الأنترى؟

كانت المانيكـان من وراء زجاج الفـترينة في شـارع فؤاد، عاريـة، مفـاصلها شقـوق دقيقة واضحـة، عند الكتفـين، فوق السـاقين، في منتصف الخصر، وعند التقاء الفخذين، وعند الكفّين تمدّهما إلى أعلى في حركةِ إغراءٍ خشبيّة ثـابتة الأحـداق، شعرهـا الأشقر الجـافّ ميّت اللمعة. ربوة فرجها مسطّحة مسدودة كاملة العُقم.

وكانت تصرخ.

صراخاً ثاقباً متّصلاً صادراً عن ألمٍ لا يوصَف.

لا أحد يسمع. لا أحد يبالي.

حُبّي سَرْمدٌ باق.

وجاءت العساكر، سوُد الملابس، تسأل عنيٍّ. تسدّد بنادقها إليّ، السونكي مشرع عار مثقوب في طرفه. مسنون وحادّ الشفرتين. تسير إليّ، بخطوات ثابتة، رؤوسها محنيّة، بتصميم.

طعنة السونكي تنفذ، حارّة، من غير أدنى ألم.

حصاة قلبي لا تنكسر.

التهمة قائمة، لا تزول.

(٩) شجرة مضطربة الثمر

المحبّة ثمرة ملتبسة

قلت: اتفقَ لي أن أدخل في شجرةٍ لا أدري ما ثمرتها.

قلت: ولا أدري ما المخرج منها.

هل كانت الشمس الذهبيّة تتخلّل أوراق الشجر بحفيفِ موسيقى الخريف؟ وهل كنت أمّر بين الأعمدة النباتيّة الخشبيّة المتعاقبة في هذه الكاتدرائيّة الحوشيّة؟ والأعشاب الجافّة تحت قدميّ تخشخش وتتكسّر برقّةٍ هشّة، وندى الفجر يتقطّر صامتاً في السكون.

بينما السماء بين يديّ.

لحمها طيّع.

وجهها صحْو.

يتخطّر جسدها أمامي في إيماءة هيّنة.

لم تكن - هي - مهمّة عندئذٍ، بل كان المهمّ صوتها. فهل يمكن أن أفصلها عن صوتها؟

نعم، هذا هو، دائماً ما يحدث.

الأصوات فقط هي التي ترجح عند الميزان.

الصوت طاهر، مصفّى، محمّل بالإيحاءات ومفتوح الالتباسات.

أمّا هي فمحدّدة في المكان والزمن. وفيها عجينة اللوثات الجسدانيّة.

لست بالطبع مقتنعاً.

كيف يمكنني أن أفصلها عن صوتها؟ هُما واحد، هُما متعدِّد.

كيف إذن أستخلص نقاءً مفترَضاً ـ أمَوْهُوماً هو؟ ـ عن الردغة الجسديّة الموحلة والمغوية.

أمسكتُ المطلق بين يديّ.

أمسكت به.

يداي مشتعلتان.

لم تكن وقدته برداً ورَوْحاً على روحي.

جمرته، دائماً، لا تطاق. أقبض عليها بيديّ كلتيهما.

كان وجهها عندي وعندئذٍ يشبه وجوه النساء من العشرينات ـ هل هي ذاكرة حيّة ومدفونة؟ ـ أو قبل ذلك. مدوّر، شعر بنّي مصفّف على الطريقة القديمة، في دوائر خفيفة ملتصقة بالرأس، ألاجارسون، قرط متدلٍّ طويل على عنق أتلع كبجعة ـ أهي صورة مشرقة من مجلّات الصور القديمة، نضرة وباسمة؟ ـ وحتّى الماكيّاج على طريقة العشرينات ـ أم هي صورة ثابتة من خزين روحي التي مهما خبرت فلا تعرف الزمن؟

أم هو غيطان الصعيد، أعواد الذرة المتكاثفة، وحرشات النخل، والشمس الثقيلة فادحة الوطأة؟ شعر أسود أثيث، مغسول، ملتصق بالجبهة والرأس بعد خروجها من الحمّام، يتعلّق بها فوج الماء المغليّ

والصابون أبو ريحة، عنقها الأسمر البيّع يتخايل بين غـدائر شعـرها. مـوجة النيـل من وراء سعف النخل، خصيبـة يلمع وهجهـا، تعشي العينين، وتمرّ بسرعة، أم أنّه جسمهـا المستحمّ العاري من وراء أجمـة السنط والنبق والجمّيز، الجذوع الخشبيّة التي صوّحتها الشمس تتهدّل عليها خمائل الخضرة الداكنة، في اهتزاز حلقات الضوء من بين تراوح الظلال الخفيفة التي لا تهدأ، والفخذان الشامختان السمـراوان عميقتا السمرة أقلّب عليهما شفتيّ وأمـرّغ وجهي، الخراف تثغو فجأة تشكـو حموة آخر الصيف من تحت صوفها المتلبّـد، القبور قـريبة ومـاثلة على ربوتها متدرّجة العُلُوّ، تنزّ سفوحها بالملح الصدفيّ المصفرّ، والعصـافير سمنيّة الريش تنقـر الأرض وتلقط الحبّ الخفيّ من بين فـروع الحلفا المتشابكة وجذوع الصبّار الشائكة، أليفة بين المقابر ووديعـة، تأتي من الحافّة الأخرى للموت.

وجههـا أم هـو كنيسـة متهـدّمـة غـائـرة تحت الأرض فيهـا عـطن الأيقـونـات المسودّة التي تكـاد تختفي جسـومُ قـدّيسيهـا ووجـوههم وحـروفهم القبطيّـة التي لا أناقـة فيها، تحت قـترة السنين وكثـافة بخْـر الـزيت والبخور، الـدِكّة الخشبيّـة المصقولـة المنحوتـة عليهـا رسـوم صلبان غير مستوية وكلمات بحـرف عربيّ متلوّ وصعب الحَفْـر «يا ربّ أغفر لعبدك خادم المسيح تادرس الخرّاط».

للأشجار، للخشب، للأيقونات، للجسم الأنثوي ولغدائر الشعر قوّةٌ كأنّها حيوانيّة، باقيةٌ مهما مرّ الزمن.

النيل أخضر منخفض وخامد الهدير، نور المـركب في الليل مشتّت الإشعاع، ماذا أفعل على الخشبـة الطافيـة على كتف النيـل؟ الحيطان

العتيقة السوداء تتخايل لي في العتمة أو أتخيّلها ولا وجـود إلاّ للعتمة؟ في أنوار الأخيلة وظلالها أشجار غامضة الثمر.

أهذا بِدْع لا حدود له؟

أطفال البلد، بجلاّبيّة باهتة متّخذة من قلوع مراكب قد احـترقتها خـروم ومـازال نسيجهـا خشنـاً شكله قـويّ الأسر، يجـرون في مـوج الليل، يركبون الكباش التي ظلّت شاخصة للغيب، عبر الدهور، ثمّ ينامون تحتها ويلعبون حولها ويطاردون بعضهم بعضاً ويشـدُّون قرونها المعقوفة أو المكسورة ويضحكون بمتعة حقيقيّة.

المشي في شـارع الست عزيـزة الحارّ الهـادئ نائـماً بـالليـل وعيـون مصـابيح الحكـومة تحـدّق بنور ثـابت متوهّجـة أسلاكـه القديمـة وراء الزجاج المغبّش بحلقات الهاموش المتكاثفة، عيون البلد كلّها تطلّ من وراء خصاص الشبابيك الموصدة.

أهـلي وأقربـائي وبلدياتي، معتمـرين العمم والطرابيش والـطواقي واللّبَـد، مرتـدين العبايـات والمـلافـح والجـلاليب والبـلاطي الكتّـان الصيفيّة والقفاطين الحرير السكروتـة، منتعلين المراكيب والجزم عاليـة السيقان ذات الأزرار الجلديّة المدوّرة الكثيرة، والنسـاء ـ والبنات ـ في الملايات والبِرَد السوداء كالخيام، ملفّفـات وثقيلات، وتحتهـا فساتـين الساتان اللامعة والطرح والشيلان البنفسجيّة ذات الشراشيب، وتحت كلّ هذه الأغلفة والأغطية والأقنعة حسّ خفيّ بالحرّيّة كاملة، بتملّك الحياة دون قيد.

هذا هو اليوم الذي صنعه الرّب.

شجى الغناء البعيد بين الغيطان له أصداء يا ساجْيَةِ العِشْج سَوَّاجك ضَنَا حالي، روحوا اسعلوا الثريّا والسَبَع نجمات، ونجمة الصبح تُنْبِيكم على حالي، دا العِشْج غدّار لا فيه شَفَجَة ولا جِنيّة. ما أغرب هذه النجوى، كأنّني أتحدّث لأوّل مرّة إلى من لا أعرف، من لا أعرف ماذا حدث له، ولي، وليس هناك أقرب إليّ منه، ولا أغرب منه عنّي، كأنّني أسأل، لأوّل مرّة «من أنت؟» وكأنّني أسأل لأوّل مرّة «من أنا؟».

من أنا؟

المدن والساحات التي تقوم داخلي لم أرها قطّ، ولم تفارقني قطّ.

تلك القباب، والقلاع كثيفة الجدران، في ساحة ما، في مدينة ما، فاطميّة أو مملوكيّة لا زمن فيها، في قلب القارّة الباردة أو في الأحراش الاستوائيّة اللاتينيّة، يدور حولها الترام بصمت، ملوّناً تلويناً خفيفاً، مركبة عتيقة وطازجة لا تنتمي إلى تاريخ، يدور، دون توقُّف تحت أشجار يتفطّر لها قلبي. توجَد لي، أنا وحدي ساكنها، على سطح العلبة الصفيح الملوّنة التي تحتفظ فيها أمّي بأدوات الخياطة، أرفع غطاءها فأجد فيها سحر بكرات الخيط الأبيض والأسود والإبَر والدبابيس والكشتبان فضيّ اللون محبّب السطح، أردّ الغطاء فتعود إليّ ـ ولم أكن قد بارحتها ـ ساحة سحريّة قائمة وماثلة، أطللت عليها في صباح مثلوج ومشمس من وراء الزجاج الصافي لنافذة مزدوجة في غرفة فندق قديم في براغ، عاصمة «كاف» وكوابيسه ساطعة الوضوح، متلوّية الأغوار في قلب جريح.

هذا الشحوب المرمريّ.
منطفئ اللمعان،
أبيض العتمة.

وحتّى في لحظات الهناءة والرضى العميق بعد تفجّر الجسد السخن المهتاج، حتّى بعد الأوبة إلى اكتفاء وامتلاء، هناك ظلّ مسبق بالفقدان، بالوحشة القابعة التي لا بدّ قادمة، لذلك فهي لحظات ـ دائماً ـ غير ممتلئة تماماً، حتّى حافة الكأس، وإن كانت تفيض بالثَمَل، فيها ـ دائماً ـ فجوة المستقبل المحتومة، غور الوحدة المضروبة التي لا مجانَبة لها.

ألم تكن قد بكيتَ بما يكفي، وأنت معها، قريباً حميماً جدّاً إليها؟

دموع ممزّقة، متدفّقة جامحة التدفّق، تحسّباً واستشرافاً لأوجاع الفُرقة التي كنت تعرف أنّها في الطريق إليك لا محالة.

فلماذا الآن، أيضاً؟
كنت قد دفعت.
وكان الثمن غير بخس.
إلى متى تظلّ تدفع؟
أنت هذا. كنت ـ دائماً ـ وستظلّ، سيّئاً في الحساب.
ثمّ إنّه ليس للدموع ثمن، بخْس أو غالٍ.
وكم من الباكين! كم من بُكاء!

ضحكت قليلاً عندما تذكّرت القدّيس ايسذوروس، كان رجل رُؤىً وعجائب، وكانت الشياطين تخافه، تهابه جدّاً، وتهرب منه.

وكان يبكي بدموع غزيرة. سأله تلميذه: «لماذا تبكي يا أبي؟» قال: «أبكي على خطاياي وآثام قلبي». قال له المريد: «حتّى أنت يا أبانا لك خطايا؟» فهل أجابه الرجل: «لو عرفت ما أعرف، لما كان يكفي ثلاثة أو أربعة أو ألْف يبكون معي». ؟

ألم يقولوا: «من كنوز الجنّة كتمان الوجع»؟

الكتمان أقتل. ربضته لا تحتمل.

قيل أيضاً إنَّ أبا بكر الصدِّيق كان بكّاء، وكان يبكي حتّى تخضلّ لحيته.

وكان أبي ـ على صعيديّته وصلابة عوده ـ سريع الدموع.

كم من البكّائين..!

طيِّب، البكّاؤون كُثُر، فما قيمة ذلك؟ ما معناه، حتّى؟

أفي ذكر هذه الرفقة الجليلة الكثيرة شُبهة من اعتذار، يعني؟

لا تعتذر أبداً عن الدموع. ليس للدموع ثمن، بخس أو غال.

ألم يُقَلْ لك مرّة في زمن بعيد: «لا تَقُلْ أنا آسف، أبداً»؟

مازالت الأسئلة غير مجابة، ومازالت «مراهقة الكهولة» ـ كم أتسلّى بأن أسمّيها ـ مستحكمة. مازالت التهويمات، أكبر بكثير ممّا تحتمله الطاقة ـ لكنّها تحتملها ـ ومازالت موسيقى أن تحيا عاصفة ومرّة، ومازلت لا أعرف كيف أقاوم الوحدة مهما فعلت ومهما كانت الحياة تحيطني بالزحام ـ الذي ظللت أدبّره وأسعى إليه طول الوقت ـ وبالبهجات ـ التي لا أنكرها ـ ومازال هذا الشجو يمكن أن يُبثّ ـ

مهما كان مضحكاً قليلاً ـ ومازالت الوحدة في حضنكِ يمكن أن تنكسر فيما تظلّ معها قرينتها غربة وغرابة دائمة.

وطبعاً هذه حلقة لا يمكن النفاذ من طوقها والأفضل أن أرى هذا وأن أسلّم به، وطبعاً أنا لا أريد أن أراه، ولا أريد أن أسلّم به، أبداً، وهكذا إلى غير نهاية.

كأنّما لا أقبل أن تُجِذب روحي.

أو أن يُجِذب الجسم الذي يتهدّم، بينما تدرّ الروح.

يا سلام!

هذه خميرة قد نضجت أكثر ممّا ينبغي وفاحت رائحتها في الليل.

كانت أمّي تقول إنّها بعد حلول الليل لا يمكن أن تُعِير جاراتها خميرة، وإلاّ تقاضت عنها قليلاً من الملح، أو أخذت ثمناً لها، ولو كان مليّاً.

على غير يقين من شيء.

أمّا اليقين فقد بذلت في سبيله الجهد وأفرغت المنّة، ولم أصِلْ إلى شي. إلا أقلّ القليل.

أنتَ ـ يا أخي ـ لم تُعْطَ شيئاً، لا مجاناً ولا بقليلٍ من الملح، ولا بالثمن.

وككلّ شيء آخر تأتيكِ المُنَى والرغائب ـ إذا أتت إطلاقاً ـ متأخّرة جدّاً.

رأيت أنّني شِبْه داخل على مجموعة من النساء ـ كلهنّ نساء ـ

وأجلس معهنّ في شِبْـه أودة الجلوس في بيتنا وأنـا صغـير ـ لكنّي غـير صغير، بل أنا الآن ـ الكَنَبة الأسطمبولي، فوتيّات الـطقمْ المعمول من خشب الجوز المشغول والمكسوّ بقطيفة مشجّرة، وكَراسيه قائمة العود، كـأنّه يـوم «الاستقبال» أو كـأنّني في جمعيّة نسـويّـة، والحبـايب كلّهن هناك.

أقوم لأخرج، تنهض لتـودّعني، كما تفعـل صاحبـة البيت أو ريّسة الجمعيّة. وتقبّلني ـ هي ـ قبلة من طرف شفتهـا العلويّة المصبـوغة من حـافّتها الفـوقانيّـة فقط بروج واضـح، ولكن سائـر الشـفتين مـازال باللون الربّاني الشهويّ داكن السمرة.

قلت لنفسي: كم من مرّة أعطت شفتيها!

وهل خَطَر ببالي ـ دون أن أقول لنفسي حتّى:

ـ وكم من رجل.

وجهها قد تفجّرت عليه فجأة ومرّة واحدة طبقة خفيفـة من العرق لا تكاد تُرى، أضفت عليه دسامة شفيفة.

قالت:

ـ ألا تريد أن تصالحني؟

نحن على غير انتـظار، وبشكل مـألوف ومـأخوذ مـأخذ المسلّم بـه تماماً، في مكان ما، مفتوح، هل نحن في إفريقيا؟ شِبْـه سوق في أكـرا؟ في كوناكري؟ مزدحم بالنساء ضخام الأجساد جـالسات عـلى الأرض هـائلات الأرداف، أمـامهنّ أطبـاق صغـيرة من الخـوص، مـدوَّرة، وقصاع مسطَّحة من الفخّار الخام غير المصقول، فيهـا توابل وأعشاب

جـافّـة. وبهـارات حـارّة اللون والعبق، وأوانٍ صغيرة فيهـا سـوائـل خضراء كثيفـة القوام، فَرَشْن أمامهنَّ حُصُـراً مفرودة عليهـا حبـوب غامضة، فواكه استوائيّة حـوشيّة، غضرة أو صلبـة المكسر أحدس أن باطنها مترع بالعصارة اللّدنة أو بحليب شفّاف، أمّا هي فقـد جلست على الأرض، بجانب النسوة تأكل منهنَّ شيئاً شبه المنجة الحارّة عسليّة الشكـل مغمورة في طبق خـزفيّ صغير بـه لبن رايب أو هـو لبن بـارد متماسك الجسم.

أمسك بين يـديّ، بتصميم وتشبُّث، إناء من الألبـاستر الفـرعوني نصف الشفّاف، وضعت فيه أحشائي يلفّها ملح النـطرون ومسحوق الكحـل، إنائي الكـانوبيّ عليـه من الخارج عقـد مضفور من البِـلّوْر الصخـريّ والعتيق، يتـدلّى من عنق الإنـــاء وينتهي بسمكـة ذهبيّــة مشغولة أخرجتها بشصٍّ غير مرئيّ، عند مدخل وادي طميلات، من الفـرع الشرقيّ السابـع للنيل، أهـديتُها كلّهـا للمـرأة ذات الشفتـين اللتين لم يضمّخهما الروج إلاّ في حلم، وردفاهـا مليئان وفـرجها بضّ يفـوح منه عَبَق خـافتٌ من عنبر الفيـل وملح البهار، ممتلئـة الأصابـع وافرة النهدين، طيِّبـة وعطوف ونَهْمـة إلى العشق، وما أيسر إشباعها، فِعْل شرب كأس من المـاء، وتحبّ العنف في البضاع ولا تتبلّل إلاّ إذا خدشتها بأظافري فوق الربوة الغضّة خدشاً رفيقاً حينـاً ومفاجئـاً حادّاً حيناً آخر، خـوّانة دون أن تعـرف معنى الخيانـة حتّى، وصوتهـا لَعِبٌ متعدّد النبرات والمستويات، رشاقتها متملّكة مع دسـامة جسـدانيّتها، قدماها كأنّهما متورّمتـان تحت ضغط سيور الجلد الـوثيق، إبهام قـدمها قويّة ومتحرّكة وفيهـا حياة خـاصّة بهـا، وشعرهـا ـ على بـطني ـ محمرّ

اللون قليلاً، مفروش مُدَغْدِغ وحرّيف الرائحة، يغمره ويغمر عنقها كامل الاستدارة، وفيه سبع غدائر متدفّقة، آخِرها فرع بلوزياك، تصبّ إلى كتفيها مترقرقيْ الأمواج وإلى حقويّ الجبليّين.

تسقيني سُلافةً مصنوعةً من استقطار جناحيْ يمامة محروقةٍ ينزل نداهما من على اللهب ممزوجاً بعسل النحل في قطْفته الأولى. وما من رُقْيةٍ ولا تعويذة تحكمها.

بين أعمدة فِيلة لم يبق في عيِّ إلاَّ أثارة ملح، وعلى سطح الروح الساكنة على الماء الساخن غصصتُ بالماء الملح المسكوب عَبَثاً، الألم المسفوح سُدَىً، لم يتثلَّم الجرح بعد، كأنَّما أبداً لن تُنْزَع عنه الضمَّادات الموضوعة ما جدواها؟

وجه الشيخ بين الشجر المبلول.
ليس ضارعاً ولا ينتظر شيئاً.
ليس قناعاً.

ألم تدركي أنّني في حضنك مغتربٌ أبداً، إلا أني مع ذلك أناجيك دون انقطاع ولكنّي لا أعرف لغتك الحميمة الأولى وأفتقد المبدأ الأوّل، وعنيداً في افتقادي ووجدي تراوغُني دائماً معرفة أُنثويّة الجسد. أهذه هي لأواء الفرقة أم لأواء المعرفة؟ خلودٌ عارض ملتبس ليس له منّي مبتدَى ولا إليه مآب.

بين الأعمدة القصيرة مكتنزة الرَبْلة في هواء النيل الذي بردّتْه رطوبةُ الصخر المنحوت عرفت بيقينٍ مَشُوبٍ أنَّ التنّين مسجون في الأرض، تحت أحد هذه العِمدان الكثيفة الراسخة، عِمْدان ساقيها ـ

منذ ألف ألف عام، لا أعرف متى.. متى يحطّم قيوده، ويفكّ الرَصَد، كأنّني إذ تشتعل نيران روحي أعوّذه وأعزّم عليه حتى يظلّ مدفوناً، والنيران سيف مشرع من الأرض مغروز في كبد السماء تتراقص ذؤاباتها وشعاليلها على الشفرتين، لا تُقْهَر.

دَفْقُ المطر الخصيب في سماء جَسدَانيّةٍ سوداء مُنَمنَمة.

صاري السفينة الطافية على السماء ملموم الشراع معلّق وعميق النفاذ في غور السحاب الخلفيّ الأبيض.

تحلّقُ حمامةٌ سوداء، من صميم خلْقي، وجهها محبوب إلى الأبد، جناحاها مطويّان عليّ وعلى جسمها الناعم معاً، أطلقتُها الآن من بين يديّ، تحوِّم وتحوِّم ثم تعلو فوق شجرةِ العالم الذي أصبح فجأةً صغيراً، هديلها لا ينقطع.

١٨ كيهك ١٧٠٧

٢٧ ديسمبر ١٩٩٠

الفهـرس

صَدَر للمؤلف

قَصص:

١ ـ حيطان عالية، مجموعة قصص، القاهرة، ١٩٥٩ ـ ط ٢، دار الأداب، بيروت، ١٩٩٠.

٢ ـ ساعات الكبرياء، مجموعة قصص، دار الأداب، بيروت، ١٩٧٢ ـ ط ٢، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.

٣ ـ رامة والتنّين، رواية، القاهرة ١٩٦٩ ـ ط ٣ دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ـ ط ٣، دار الأداب، بيروت، ١٩٩١.

٤ ـ اختناقات العشق والصباح، قصص، المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٣ ـ ط ٢، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.

٥ ـ الزمن الآخر، رواية، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٥.

٦ ـ محطّة السكّة الحديد، رواية، مختارات فصول، القاهرة ١٩٨٥ ـ ط ٢، الآداب، بيروت، ١٩٩٠.

٧ ـ ترابها زعفران، نصوص اسكندرانية، المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٦ ـ ط ٢، دار الآداب، بيروت، ١٩٩١.

٨ ـ أضلاع الصحراء، رواية، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.

٩ ـ يا بنات اسكندرية، رواية، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.

١٠ ـ مخلوقات الأشواق الطائرة، رواية، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.
١١ ـ أمواج الليالي، دار شرقيّات، القاهرة، ١٩٩١ ـ ط ٢، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.
١٢ ـ مختارات من القصّة القصيرة في السبعينات مع دراسة، مطبوعات «القاهرة»، القاهرة، ١٩٨٢.
١٣ ـ حجارة بوبيللو، رواية، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.
١٤ ـ الخطاب المفقود، ا.ل. كارجيالي، مسرحيّة، الدار المصريّة للكتب، القاهرة، ١٩٥٧.
١٥ ـ الحرب والسلام، ج ١، ٢، ليو تولستوي، رواية، الدار المصريّة للكتب، القاهرة، ١٩٥٨.
١٦ ـ الغجريّة والفارس، قصص رومانيّة، الشركة العربيّة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨.
١٧ ـ شهر العسل المرّ، قصص إيطاليّة، كتب ثقافيّة، القاهرة ١٩٥٩.
١٨ ـ فارالاكو، إميل سيسيه، رواية غينيّة، الألف كتاب، القاهرة، ١٩٦٢.
١٩ ـ انتيجون، جان آنوي، مسرحيّة، (بالاشتراك مع ألفريد فرج)، الألف كتاب، القاهرة، ١٩٦٣.
٢٠ ـ مشروع الحياة، فرنسيس جانسون، دراسة، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٧
٢١ ـ ميديا، جان آنوي، مسرحيّة، مجلّة المسرح، القاهرة، ١٩٦٨.

٢٢ ـ الوجه الآخر لأمريكا، ميكائيل هارنجتون، دراسة، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨.

٢٣ ـ تشريح جثّة الاستعمار، جي دي بوشير، دراسة، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨.

٢٤ ـ الشوارع العارية، فاسكو براتوليني، رواية، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٩.

٢٥ ـ نحو التحرُّر، هربرت ماركوز، دراسة، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٢

٢٦ ـ حوريات البحر، قصص أمريكيّة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٩

٢٧ ـ الإسلام والاستعمار، رودلف بيترز، دراسة، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٥.

٢٨ ـ عدلي رزق الله (مائيّات ٨٦)، دراسة، القاهرة، ١٩٨٦. القاهرة، ١٩٨٦

٢٩ ـ مائيّات صغيرة، دراسة، القاهرة، أغسطس ١٩٨٩.

٣٠ ـ أحمد مرسي، دراسة ومختارات شعريّة، القاهرة، ١٩٩٠.

هل نسيت أحلام الليلة الغائبة؟ عارفاً أنَّ كلَّ ليلة فاتت تمضي بي
نحو موعد عقيم.
هل صرعتني غوائل سورتي وحُمَّيا أشواقي المستميتة..؟
هل صَدَرَ الحكم؟
بأن يجتذب البحر خُطاي، دون حِوَل.
حافزٌ مغوٍ لا مقاومة لغوايته.



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت